

RE

Princeton University Library



32101 057334664

PRINCETON UNIVERSITY LIBRARY

*This book is due on the latest date
stamped below. Please return or renew
by this date.*

الإسلام في العالم الحديث

المساحون

في المتوسط الشرقي

بملم
الجنرال بوهمر والجنرال انري

منشورات دار المكشوف



الجزال بوهتر و الجزال أندري

Bühner

السلام في العالم الحديث

١

المسلمون في المتوسط الشرقي

تأليف إلى العربية

لouis الحاج

منشورات دارالمكشوفات

(RECAP) (b)

BP50

B8412

ju2²1

87B 3164/

الطبعة الاولى ، بيروت - لبنان ، اذار ١٩٥٣

جميع الحقوق محفوظة لدار المكشوف



كلمة العرب

تزداد عناية الغربيين بالشرق وبسكانه وشؤونهم الماضية والحاضرة والمقبلة بنسبة تطور هذا الشرق ومحاولته استعادة حريته واستقلاله واجاده الغابرة . وتبرز هذه العناية ، اكثر ما تبرز ، في الدول الغربية التي بسطت سيطرتها المطلقة على الشعوب الضعيفة ، فاستعمرت بلدانها ، واستغلت خيراتها ، فقوي نفوذها وامتد ، وتضاعفت ثروتها ووفرت دون ان يصيب الشعوب المقهورة من ذلك غير الذل والفقر والانحلال المادي والمعنوي وما يخلفه من شقاء ومرض وجوع وخوف ، حتى كانت الحرب العالمية الاولى فاضطر المستعمر لان يفيد من خدمات ابناء مستعمراته ، وان يخاطبهم ويعايشهم ، فترتب على هذا الاحتكاك زوال الهيبة التي كانت للمستعمر في نفوسهم وسقوط الستار بينه وبينهم ، فاذا هو وهم اخوان في الضراء ، فلماذا لا يكونون اخواناً في السراء كذلك ؟

وجاءت المبادئ الماركسية والمناداة بحق الشعوب ، على اختلاف ألوانها وامصارها ، في الحرية والاستقلال ، تزيل ما بقي من حراجز بين الاقوياء والمستضعفين ، وساهم انتشار العلوم والمعارف في تحرر الشعوب المقهورة من مركب الخوف ومركب النقص ، ناهيك بالتشجيع الذي لاقته ثملات هذه الشعوب وانتفاضاتها من جانب الدول الكبرى التي فاتها قطار الاستعمار .

5-2-58 - Oriental

ولما كانت الشعوب الاسلامية في افريقيا وآسيا في طليعة شعوب القارتين من حيث قابليتها للتطور والاخذ بأسباب الرقي ، فقد كانت السبّاقة في مضمار السعي الى التحرر من السيطرة الاجنبية ، وكان للعرب فضلهم الذي لا ينكر في حمل مشعل النهضة وتوجيه الحركات التحررية . وبديهي ان تتعثر خطى الاستعمار وهو يصادف في طريقه عقبات اقامتها ارادة شعوب متوثبة ، وبديهي كذلك ان يظل هذا الاستعمار سادراً في غيّه معتمداً القوة والبطش وسيلة لفرض اساليبه وسيطرته ، فهو يستمد قوته ونفوذه العالميين من « المدى الحيوي » الذي احرز به بحمد السيف تارة وبالحيلة طوراً . ولكن القوة والبطش لم يطفئا جذوة المتأججة .

وكانت الحرب العالمية الثانية نقطة التحول في تاريخ الاستعمار ، فقد ادرك المستعمرون ان العتاد البشري الذي اعتادوا تعبئته في البلدان المستضعفة لن يقاوم في صفوفهم هذه المرة . يقبض الثمن ، فبدلوا له الوعود وخففوا من وطأة استعمارهم بعض الشيء ، واضطروا في البلدان المتطورة نسبياً الى الاعتراف لشعوبها بالاستقلال الذاتي والحرب في ابانها ، واضطرتهم الولايات المتحدة الاميركية ، بعد ان وضعت الحرب اوزارها ، الى هجر اكثر من اسلوب من اساليب الاستغلال والاستثمار .

واليوم يتعالى في وجه الغرب المستعمر هدير الثورة في كل مكان ، فالشعوب التي تلقت وعوداً قامت تستنجز المستعمرين وعودهم . والشعوب التي ذاقوا حلاوة الاستقلال الذاتي او النوعي تريد ان تنعم بالاستقلال الناجز . وتلاقى هذه الحركات التحررية تشجيعاً من جانب الولايات المتحدة الاميركية وروسيا السوفياتية :

هذه لانها تعتبر المستعمرات العمود الفقري في هيكل للدول الغربية ،
وتلك لان الاستعمار العسكري والسياسي والاقتصادي لا يساير
اهدافها كدولة تريد اغراق الاسواق بمنتجاتها وغزو الامصار
بمثاليتها ورسالتها الثقافية التبشيرية .

وحيال هذا التطور الخطير تبذر من الدول الاستعمارية بوادر
تم عن استعدادها للتفاهم والشعوب المقهورة ، ولكنها لا تذهب
في استعدادها الى حد التخلي عن كل شيء ... انها لا تعارض في
الاعتراف للشعوب بحق حكم نفسها بنفسها ، ولكنها تتشبث بما لها
من مصالح اقتصادية ومواقع استراتيجية ومركز ثقافي ممتاز .

وفي هذا الصراع بين الغرب الضنين بما هو في قبضته والشرق
الناثر ، ترتفع اصوات من هنا وهناك مهيبة بها ان يتفاهما ويتعاونوا
ليستطيعا الوقوف في وجه العملاق السوفيياتي . وفي عداد هذه
الاصوات صوت القائدين الفرنسيين مؤلفي هذا الكتاب . وقد رأينا
ترجمة مؤلفها لا ايماناً منا بانهما يصدران عن اقتناع واخلاص في
ما يبديان من آراء ومقترحات ترمي كلها الى التوفيق بين العالم
الاسلامي والغرب ، بل رغبة في اطلاع العرب والمسلمين على بعض
ما يقوله الغربيون في نهضتهم ومداهم واهدافها .

لويس الحاج

تقديم

يسعدني ان اقدم الى الجمهور هذا الكتاب الذي يعالج موضوعاً هو أحد مواضيع الساعة : تطور الاسلام . اما مؤلفاه فهما الجنرال ج . بوهرر الرئيس السابق لهيئة الاركان العامة لقوات المستعمرات ، والجنرال ب . ج . اندري وقد كانا ، كلاهما ، من معاويني المحصلين طيلة سنوات ، وما تزال تشدهما اليّ عرى الصداقة والود . اعطى المؤلفان ، خلال سني خدمتهما ، اجمل ما في ذاتهما من اجل عظمة الامبراطورية الفرنسية ، وهما يجتهدان ، في تقاعدهما النشط ، في خدمة قضية التعاقد بين فرنسا وبممتلكاتها ما وراء البحار . ولا ريب في ان الذين يطالعون هذا الكتاب - وهو ثمرة خبرة طويلة وتفكير عميق - سيساطرونني الشعور بان المؤلفين قد وفقا توفيقاً كاملاً .

بعد ان يدرس الجنرال بوهرر وزميله وضع الاسلام في اوربا والشرق الادنى وافريقيا وآسيا ، يقطعان بان الانقلابات التي غيّرت شكل العالم منذ ١٩١٤ قد كان لها تأثيرها الكبير في مسلك السكان الذين يعيشون تحت شعار الهلال . وقد فقد الاسلام ، عقيب قيام الثورة التركية ، الخلافة التي كان يستمد منها وحدته ان لم نقل قوته ، واليوم يجتهد الاسلام المعاصر في بعث هذه الوحدة على الصعيد الروحي .

في الحقل السياسي ، رأينا الشعوب الاسلامية تجتاز حقبة متنوعة تخللتها تباعاً حركة الوحدة الاسلامية ، فحركة الوحدة العربية ، فحركة الوحدة الطورانية ، وهي تنزع في ايماننا - متأثرة بتطور السياسة العالمية - الى تخطي دور الامة ، على امل الوصول الى التحسس بالوطن الاسلامي الذي يضم المؤمنين في شتى القارات . ويمكن منذ الآن تقدير النتائج السياسية والاجتماعية لهذا التطور الاسلامي في المناطق التي يعيش فيها ملايين وملايين من المسلمين .

ويبدو ان حكومة روسيا السوفياتية قد سبقت سائر الحكومات الى وعي اهمية هذا التطور ، وراحت تسعى ، في محاولتها اخضع العالم لسيطرتها ، والى استغلال هذا الشعور الجديد لدى المسلمين الذين يعيشون على الارض الروسية ، والمسلمين المنتشرين في البلدان المتاخمة للاتحاد السوفياتي . من اجل هذا يقوم الروس بدعاوة بارعة ، مغلفة ، هدفها اجتذاب المسلمين الطورانيين الى فلك السوفيات . وانا لنقع على اثر هذه الدعاوة في المناطق الافريقية والاسيوية وفي الشرق الادنى حيث يتجلى تطور الاسلام السياسي باجلى مظاهره .

فمصنف الجنرال بوهرر والجنرال اندري يظهر ، والحالة هذه ، في وقته ، وضعه ، بروح منزه عن الاهواء وببجرد تام ، فرنسيان احتكا بالسكان المسلمين في بقاع شتى من العالم ، وراقباهم بعطف ، وتوخيا ايجاد الحلول الممكنة ، ان لم نقل الليسيرة ، للمسائل التي يثيرها تطور الاسلام . وقد حددا ، في اطار الاتحاد الفرنسي ، العلاقات التي يجب ان تقوم بين فرنسا والشعوب الاسلامية ما وراء البحار ، وذلك صوناً لمصلحة الطرفين . واني لاشاطر المؤلفين افتناعهما بان الاسلام ، هذا المحرك القوي لملايين المؤمنين ، لا يعقل ان يبقى مكتوف اليدين

حيال الاحداث التي تمز اوروبا - آسيا (اوراسيا) واوروبا - افريقيا
 (اورافريقيا) . وارانى ، مثلها ، مقتنعاً كذلك بان فرنسا تعرض
 نفسها لاختار جسيمة ان هي اخطأت في تقدير مدى تطور
 الاسلام المعاصر وتركت الاحداث تسبقها .

ادوار دالاديه

مقدمة

عدتُ من افريقيا الغربية في آب ١٩٢٤ بعد اقامة طويلة وجدتني خلالها مسوقاً الى الطواف بجيز كبير من افريقيا السوداء . وبعد ايام من وصولي الى باريس قضت مشيئة وزير صديق باستدعائي الى شارع « اودينو » حيث يقوم مقر وزارة المستعمرات (ولم يكن هذا الاسم وقتئذ ذا معنى مقيت وغير مرغوب فيه) . وقد رغب اليّ رئيسي ان آتية بضابط شاب ذكي ، ليلحقه بمكتبه ويفيد ، عند الاقتضاء ، من معلوماته بصدد المسائل ذات الطابع الاستعماري . فنصح لي الكولونيل آمر كتبية المشاة الاستعمارية الثالثة والعشرين بأخذ ضابط برتبة كابتن ، وقال في وصف مرشحه بانه ذو عقل راجح ونضج يندر ان يتحلى به شاب في مثل سنه ، وانه مخيط بشؤون ما وراء البحار احاطة تامة .

كان الضابط فتى فذاً بالفعل ، ابرزت الحرب الكبرى الاولى ما يتحلى به من ذكاء وشجاعة ونشاط . وقد طوّح به ميله الى المغامرة فالتقه تباعاً في المحيط الهندي ، فمدغشقر ، فزنجبار ، فسواحل البحر الاحمر القاحلة ، فكان تارة قبطاناً متمرنأ ، وطوراً قرصاناً (هذا ما يقوله هو عن نفسه) . كان يجري وراء المعلومات هنا وهناك وهناك . وبدأ يتعرف الى الاسلام ، وما لبث ان اضحى الاسلام ، بالنسبة اليه ، ما هو التبغ بالنسبة الى المدخنين . وبعد الحرب تابع ، في الشرق

الادنى وفي نطاق ما يسميه الانكليز دائرة الاختبارات ، « عمله الشاق ، المحفوف بالمخاطر ، الحافل بالدروس ، والذي لا يمكن المرء ان يؤديه بنجاح ما لم يلبس لكل حالة لبوسها ، وما لم يكن محيطاً احاطة تامة بالاعراق والديانات والعادات والتقاليد واللغات . »

وقد اعجب بنشاطه وزير لم تكن لديه فكرة عما تستطيعه هذه الملاكات الاستعمارية التي تشوقها المغامرات بقدر ما كانت تشوق فاتحي الامبراطورية ، ولكنها تحل معرفة البشر والشعوب المحل الاول من اهتمامها ودروسها .

واصبح الضابط فيما بعد معاوناً ثميناً لي وصديقاً وانياً ، يشاطرني رأيي في وجوب الاستمرار في العمل ما دام الانسان قادراً على العمل جسدياً وعقلياً . لهذا رأى - وهو المحال الى المعاش بعد ان بلغ في حياته المسلكية ارفع الرتب العسكرية - ان يتيح في هذه الفترة الدقيقة للذين يضطلعون اليوم بمهمة الاشراف على مقدرات الامبراطورية الفرنسية حيث يعيش الملايين من اتباع النبي ، رأى ان يتيح لهم ، في وقت تعز فيه الكفاءات ، ان يفيدوا من خبرته في شؤون الاسلام ومن معرفته بكل ما يتصل بالعالم الاسلامي .

ان ما يلقاه هذا الكتاب من تقدير يعود الفضل فيه الى الجنرال ب. ج. اندري : الى معرفته التامة بالاسلام والمسلمين ، وتوفره على الدرس ، وإلى ابجائه المستمرة وتضلعه من اللغة العربية ، وإلى همته التي لا تفتقر . اما دوري انا فقد كان مقصوراً على الترتيب والتنسيق مضافاً اليها خبرة شخصية ودراسة شاملة للحركات الكبرى التي تهب العالم في ايامنا .

لم يوضع هذا الكتاب ليُلقي بين ايدي ارباب الاختصاص من

دون سائر الناس . فهو يقدم الى المواطنين اكثر من دليل على ان الاسلام هو غير الشرق بزيفه وصيانياته . انه احدى الحركات العالمية الكبرى التي يمكن ان تشكل - اذا اسيء توجيهها - خطراً كبيراً على البشرية في تلسمها سبيلها الجديد .

في العام ١٩٢٢ ظهرت للجنرال ب . ج . اندري (وكان ضابطاً برتبة كابتن) دراسة حافلة بالاسانيد عن الاسلام والاجناس . وقدم الكتاب هنري فرواديفو بكامة جاء فيها قوله : « في هذا الكتاب ينير الماضي سبل الحاضر ، فالوقائع العنصرية والدينية والتاريخية - العسكرية في ايامنا تجد تفسيرها في دراسة يقظة للاحداث السابقة . » وفي العام ١٩٢٤ ساهم الكبتن اندري في كتابه « الاسلام الاسود » في درس اهداف الفرق الدينية الاسلامية في افريقيا الغربية . وقد لفت الحاكم العام « كارد » الحبير بالشؤون الاسلامية - وكان المؤلف رئيساً لمكتبه - الى هذه الدراسات « الذين يشرفون على مقدرات امبراطوريتنا الافريقية . »

هذا الكتاب ، الذي يرافق الاسلام في تطوره ، يهدف الى تحديد مركز الاسلام بعد سلسلة الانقلابات التي ما فتئت تهز ، منذ سنة ١٩١٤ ، سكان البسيطة كافة ، اياً كانت اجناسهم واديانهم . ولا يكتفي هذا الكتاب بتقرير ما هو حاصل ، بل يواجه الحوادث الحاضرة التي تهدد بجرّ الشعوب الى نزاع جديد قد تكون فيه نهاية الحضارة ، باحثاً عن الوسائل والاساليب التي تتيح للاسلام ، باتباعه البالغ عددهم ٣٠٠ مليون ، ان يتبوأ مركزه الجديد في عالم يفهم اخيراً واجبات البشر وحقوقهم .

الجنرال بوهرر

مدخل

بين الحركات الدينية الكبرى والفكرية التي اقامت الدنيا واقعدتها ، نجد ان الاسلام هو ، على العموم ، الحركة التي لم يُعَنَّ الباحثون العناية الكافية بدراسة جوهرها . ولئن يكن تطور الاسلام في السنوات الاخيرة قد استرعى انتباه المتوفرين على الدرس والتحليل ، فقد ظل ، على عمقه وخطورة عواقبه ، مجهولاً لدى الجمهور . يطبق بعضهم على درس هذه الحركة الدينية اساليب البحث العلمية المطبقة على الاشياء المفروغ من امرها ، مع اننا حيال شجرة حية ذات ارومة غائصة في لجة الماضي ، وقد تكون جذعها ببطء وبشيء من الصعوبة . وها هي اغصانها ، التي تنمو قوية ولكن بغير نظام ، تحاول اليوم ان تحتل مكانها تحت الشمس وسط غابة كثيفة من المثاليات والمباني والافاضال الراهنة . والاسلام ، هذه القوة العالمية التي اجتازت اكثر من امتحان ، والتي لها حوافز ذاتية لا تقاوم ، يمكنه ان يتطور وان يتحول في بعض الحالات وان يظل هو اياه .

ولفهم الشعوب الخاضعة لشريعة الاسلام في عالمنا الحالي ، ينبغي للباحث ان يتجنب مزلق استشراف لا قيمة له ولا فائدة ترجى منه . ومن الخطأ اعتبار التوفر على درس العقائد والتاريخ كافياً لتفسير مسائل الساعة وحلها . فالشعوب الاسلامية ، مع بقائها

خاضعة للتقاليد الدينية خضوعاً يتجلى في إيمانها بالله وبرسوله محمد ،
هي اليوم كسائر الشعوب على اختلاف أجناسها ، وألوانها ودياناتها
مسيطرة بقوة غالبية تدفعها إلى الامام على طريق الحرية والتقدم .
ومن دواعي الأسف أن هذه القوة تعمل بسرعة بحيث لا
تتيح للشعوب أن تتابع تطورها بهدوء وروية . وقد وجد أبناء
الإسلام أنفسهم وسط التيارات التي تهز العالم وتتقاذفهم بقوة وعنف ،
وهم بعد حديثو العهد بفكرة الأمة والوطن .

في العام ١٧٨٩ كان للمباديء التي انبثقت عن الثورة الفرنسية
صداها حتى في الشرق . واليوم تظهر مثالية جديدة : « فكلمة
« الاستقلال » هي على كل شفة ، تلفظ بجميع اللغات . وهذه الكلمة
السحرية التي هزت أوروبا وأميركا ، لقرن ونصف قرن مضياً ، قلب اليوم
أحوال آسيا وأفريقيا رأساً على عقب . وعدوى الانتصارات السياسية ،
التي أحرزتها هنا وهناك الشعوب الملوثة على أوروبا المتعبة ، تنتقل
بسرعة إلى الأديين والابعدين . فقد حمل تحرر الهند بورما على رفض
كل رابطة تشدها إلى الامبراطورية البريطانية ، وادى إلى تقوية الشعور
الوطني الشديد الصلف في الهند الصينية واندونيسيا . واننا لنرى النخبة
في نيجيريا - وهي تضم عناصر الفت جيلاً وسط قبائل كانت في
الأمس من عبدة الأرواح - تستشهد بما بلغت إليه اثيوبيا من حرية
واستقلال للتدليل على أهليتها هي للتمتع بالميزة نفسها .

« هذه الحركات التي تثيرها حتى التقليد يزيد نطاقها اتساعاً ،
وتستحث خطاها تدخلات بعيدة المصادر . ففي دكار رحب مؤتمر
الاتحاد العالمي للنقابات بقيام حلف بين قوى البروليتاريا والعنصرية
السوداء الأفريقية ، مهداً بذلك أمام الاتحاد السوفييتي حقلاً جديداً

للعمل في بقاع تعددها امم اوروبا الغربية بمثابة ممتلكات لها .
 « وقد رأينا هندستان تهاجم ، في المجالس الدولية ، جنوب افريقيا
 متهمة اياها باعتماد سياسة التمييز بين العناصر . ورأينا هندستان
 تشجع في لندن زعماء افريقيا الغربية ، بينما كانت البعثات الدينية
 الاسلامية (الاحمدية) تغادر الباكستان الى داهومي حاملة واياها
 اسلاماً يساير روح العصر .

« وفي بعض الاحيان تبدو لنا معارضة شعب من الشعوب او
 قوم من الاقوام محض محلية ، ولكنها تستنجد في الواقع بقوى
 موزعة في الدنيا قاطبة . وها هو النزاع بين القومية اليهودية
 والعروبة والاسلام يجر الى الحلبة عدداً لا يحصى من انصار الفريقين
 في العالم ، كل هذا من اجل البت بمصير رقعة صغيرة في حوض
 البحر المتوسط . ومن هنا يبدو لنا جلياً انه لم يبق في آسيا
 وافريقيا قضية منعزلة .

« وفي كل مكان يتفاقم النزاع بين العمل ورأس المال تفاقماً
 لا يمكن تقدير عواقبه . وفي الوقت نفسه يقوم في آسيا وافريقيا ،
 من الصين الى مراكش ، في ذهن النخبة الفتية التي أبعدتها الثقافة
 العصرية عن التقاليد الموروثة ، صراع شديد بين الماضي والمستقبل ،
 صراع داخلي يثير في كل مكان الحيرة نفسها ، ناهيك بالشكوك
 والاضطرابات . وتبرز الازمات الاقتصادية بشكل موحد في كل بلد
 من البلدان . »

أترانا نتجه بخطى واسعة نحو تحقيق العالم الواحد؟ هذا ما يخيل إلينا، ولكن بؤادر التطور الحديث في آسيا وأفريقيا تواجهنا بوقائع متنافرة تجعل الاتجاه المعاكس هو الاتجاه الغالب. فخلف ستار المؤثرات العصرية يستمر التطور التاريخي وتوضع تصاميم لحركات بعضها عنيف.

لقد انجرت الشعوب الإسلامية، كغيرها من الشعوب، إلى هذه الحلقة الجهنمية، وعبثاً حاولت من ثم الخروج منها. فحتى سنة ١٩٢٣ كان العالم الإسلامي يشخص بإبصاره إلى «حبر اعظم» السلطان - الخليفة الذي كان يقوم لدى المؤمنين بدور الناصح والمرشد، بما له من سلطة عليا يعترف له بها الجميع على ما بينهم من عوامل الشقاق والتفرقة. وقد اوجدت الثورة التركية، بالغائها الخلافة، للعالم الإسلامي، مقدرات جديدة، وعجّلت بظهور قومية خاصة في كل بقعة من بقاع الإسلام. وفي الوقت نفسه اخذت تظهر، شيئاً فشيئاً، تيارات مضادة للعروبة، هذه القاعدة الأساسية للإسلام القديم، حتى في المسائل الدينية نفسها. وهكذا يبدو على الإسلام المعاصر أنه، بدلاً من أن يوحد كلمته، ينزع إلى تنشئة إسلام متوسطي عربي وآخر اسيوي غير عربي.

بيد أن انتشار الإسلام قد اوجد «وسطاً» خاصاً له مثالية واضحة المعالم قيمة بإيجاد صلة وثيقة بين مسلمي الغرب ومسلمي الشرق، ولكنها صلة يمكن أن تتراخى تبعاً لنمو القوميات المحلية. وحرصاً منا على اعطاء فكرة صحيحة عن تطور الإسلام في عصرنا، سنحاول الاستشهاد بالوقائع الواضحة، متحاشين ما أمكننا الاعتبار التاريخية التي لا نهاية لها، مع العلم أن لا مفر لنا من

الرجوع اليها في بعض الحالات . وسنكتفي بالإشارة الى التيارات الكبرى التي فرضت الدين الاسلامي على العديد من الشعوب (لان لهذه التيارات تأثيرها المباشر في الحركات الحالية) كالفتح العربي والتوسع التركي - المغولي اللذين عملتا تحت شعار المعتقد الواحد . وقد ترتب على المظاهر الخارجية لهذا المعتقد نشوء الاسلام المتوسطي والاسلام الاسيوي . وها هما يتواجهان الآن وقد يؤدي هذا الحدث اما الى وحدة الشعوب التي اعتنقت الاسلام او الى انقسامها على نفسها . ويلوح ان هذه النتيجة او تلك ستظهر اول ما تظهر في الشرق الاوسط ، الواقع بين اوروبا - اسيا ، واوروبا - افريقيا .

وان دراسة التطور الاسلامي على ضوء هذا الواقع قد يتيح لنا تحديد وضع الشعوب التي اعتنقت الاسلام بالنسبة الى عالمنا المعاصر . في القرن الفائت بسطت اوروبا والحضارة الغربية على آسيا وافريقيا سيطرة ثقافية وسياسية واقتصادية تحاول الحركات التي تهز العالم في ايامنا ان تزيل معالمها من الوجود . ولقد استيقظت آسيا من قبل ، وها هي افريقيا تحذو حذوها . ففي آب ١٩٥٠ تقدم السادة ماكي ، مندوب حزب العمال البريطاني ، وسانغور ممثل السنغال في المجلس الوطني الفرنسي ، واوسيان ديوب صول ممثل السنغال في مجلس الجمهورية - تقدموا من المجلس الاوروبي المنعقد في استراسبورغ بقرار جاء فيه ما نصه الحرفي : « ان مسائل البلاد الافريقية - وهي جد متنوعة ومتداخلة - لا يمكن ان تحل حلاً نهائياً ما لم تنشأ الولايات المتحدة الافريقية . »

تري ، ماذا يكون مصير الاتحاد الفرنسي اذا اقترنت قرارات من هذا النوع بالموافقة ؟ مهما يكن من امر ، فالثابت ان سكان

الامبراطوريات الاستعمارية يطمحون الى الاستقلال وان يكونوا بعد مضطرين للاستعانة بالتكنيك الغربي وما يتبعه من وسائل مالية ليتسنى لهم ان يتطوروا وينموا مادياً . ولكن هذا التكنيك يأخذ مداه اليوم في كل مكان من الولايات المتحدة وروسيا ، فهل يقسم هذان العملاقان العالم ، ام ينتهي بها الامر الى الاقتتال في سبيل السيطرة العالمية ؟

انها لعلامة استفهام خطيرة ترسم في وقت لم تعرف اوروبا او لم تستطع او لم تشأ ان تتخذ التدابير اللازمة للتعرف الى المطامح الحقيقية لشعوب ما وراء البحار والعمل على تحقيقها في نطاق الممكن والوقت المناسب ، حيث يبدو نشاطها الخلاق آخذاً بالتضاؤل ، وحيث تبدو الحضارة الغربية هرمة حيال المثالية الاميركية والصوفية الروسية الفيتيين .

« ولكن الثقافة ليست ، حسن الحظ ، شيئاً ثابتاً . ليست الثقافة شيئاً من مخلفات الماضي يجب حفظه في المتاحف ، انها حقيقة بل واقع حي يجب خلقه من جديد وباستمرار تبعاً لاستمرار الفكر في نشاطه . والامثلة التي اخذناها عن اوروبي الامس ليست الحفاظ على الثقافة كما اوجدوها هم ، انما هي ان نظل متمسكين بمبادئهم ، على ان نطبقها على احوالنا الخاصة ^١ . »

تنطبق هذه الافكار على الشعوب الاسلامية التي توجه تنشئتها التقليدية تطورها العصري وتساهم في الحفاظ على الاستقلال الحقيقي وفي مقاومة الاستعباد ايأ كان مصدره . فالاسلام العربي يمكن ان

١ دانيال روبس ، في معرض الكلام على انشاء « جمعية الثقافة الاوروبية » ، في شهر آب ١٩٥٠ .

يشعر بالخطر يتهده من ناحية الاسلام الاسيوي ، وان يكن
المسلمون يميلون الى الاعتقاد ان كل شيء تمكن تسويته مع الايام
في اطار الاسلام وخلق الاسلام . يضاف الى هذا ان الاسلام العربي
يجد في الغرب الملاكات التكنيكية التي يفتقر اليها دون ان يترتب
على استعانتها بها اي اساس بالدين . وقد تطورت الاقطار الاسلامية
حتى اليوم في نطاق التنشئة الاسلامية المنسجمة مع الحضارة الغربية .
ولا ريب في ان التفهم المتبادل بين الغرب والاسلام في الظروف
الحالية يمكن ان يسفر عن نتائج خصبة .

في سبيل هذه الغاية وضع هذا الكتاب . واذا وجد مسلمون
في عداد من يتصفحونه ، فاننا نرجو الا يجدوا في شهادتنا ومقترحاتنا
مساساً بهم او ما يثير دهشتهم . واننا لتتوجه الى المختصين في الشؤون
الاسلامية آملين ان يفضوا الطرف عن هذه المحاولة يقوم بها قائدان
عسكريان سابقان لا مطمح لهما الا لاستمرار في الخدمة بالمساهمة
في ايجاد اسس لتفاهم منسجم ونهائي بين بلادهما وابنائهما في الاقطار
القاصية بعد ان عرفا هؤلاء الابناء وقدرهم واحبهم .

تطور نفسية الاسلام في الماضي

لفهم وضع الحركة الاسلامية الحالية في العالم ، لا بد لنا من الاحاطة بنفسية الاسلام خلال تطوره التاريخي . فمن الخطأ ، اذاً ، اغفال ربط بعض الوقائع المحلية بنمو الاسلام وتعاضل شأنه ، لان هذا الاغفال يجرد الوقائع من قيمتها الحقيقية .

لنعط ، اذاً ، عن الاسلام ونموه وتطوره ، لمحة عامة .

ظهر الدين الاسلامي في البلاد العربية في اوائل القرن السابع الميلادي . وبفضل النهضة التي اوجدها النبي محمد اندفع العرب يفتتحون الامصار . ودانت للاسلام سوريا حيث وجد بدو الصحراء ان الادارة البيزنطية قائمة على ملكية الارض ، فاقبضوها لمصلحة الدين الجديد في سعيهم الى انشاء امبراطورية . وما لبثوا ان قوضوا دعائم بيزنطة ، واخضعوا الشرق الادنى ومصر وافريقيا الشمالية لسيادة العنصر العربي ، وازاحت مكة والمدينة مركزين دينيين ، بينما اصبحت دمشق فبغداد واخيراً القاهرة العواصم السياسية للدولة .

وهكذا انبثق من البذرة التي وضعها محمد في ارض شبه الجزيرة العربية شجرة قوية ذات فروع ، متينة بعض الشيء ، ومستطيلة الى حد ، تمتد اغصانها هنا حتى الاندوس ، وهناك حتى المحيط الاطلسي وسهول الوادي الكبير ، الا ان بعض الفروع قد انفصل ليحيى بعض الوقت حياة مستقلة .

وعلى الجذع نفسه نبت ابر (مطعوم) وما لبث ان حمل الى الشجرة حياة جديدة. ذلك انه في الوقت الذي كانت الخلافة العربية خذة بالانحطاط، كان الاتراك المغول الذين حملوا سلاحهم وانطلقوا من تركستان وعلى رأسهم جنكيز خان ليحققوا فتوحات عظيمة في الدانوب والمحيط الهادي - كان هؤلاء الاتراك المغول بمثابة مركبة للاسلام، نشروا الدين الجديد، المنبثق من البلاد العربية، في آسيا الوسطى وحتى في الشرق الاقصى.

واليوم يبلغ عدد المسلمين في العالم نحواً من ثلاثئة مليون، منهم عشرون مليوناً في الاتحاد الفرنسي^١.

«وهذه المجموعة الضخمة من المسلمين تؤلف الامة الاسلامية على الرغم من عوامل الانقسام السطحي التي تجعل منها، في الظاهر، مجموعة امم (من هذه العوامل التنافس بين القوميات وتضارب المصالح). ذلك بان الدين يشد اجزاء المجموعة بعضها الى بعض بوشائج قوية، ويصهرها في بوتقة واحدة. فهي، على تعدد اعراقها وتضارب نزعاتها وتباين اهدافها، تخضع لمثالية واحدة وتستوحي مفاهيم فلسفية مستمدة من العقيدة الدينية الواحدة، واذ تحزم امرها على شيء فبدافع من الايمان، وان هي تباعدت بتأثير العوامل السياسية والاقتصادية والتعصب القومي، فالشعور بالعداء نحو الاجنبي لا يلبث ان يعيد اليها اللحمة.

«وليس الاسلام مذهباً دينياً فحسب (مذهب لا محل فيه

١ الاتحاد الفرنسي تعبير أطلقه الفرنسيون، بعد الحرب العالمية الثانية، على فرنسا وممتلكاتها ما وراء البحار. - المغرب.

للمشككين والمرتدين) بل هو وطن . ولئن تكن القومية الدينية التي يقول بها بعض مفكري الاسلام لم تشكل حتى اليوم خطراً له شأنه ، فمرد تقصيرها في هذا المضمار الى ما آلت اليه حالة الشعوب الاسلامية من جراء صلابة العقيدة وسيطرتها المطلقة على العقول . فقد تضائل شأن هذه الشعوب بعد ان اصيبت بالعقم الفكري ، وباتت عاجزة عن النضال ضد القوى المادية التي يضعها العلم والتقدم في متناول الحضارة الغربية^١ .

هذا الحكم القاسي يمكن ان يسري على بعض الجماعات المنطوية على نفسها ، ولكن هذا البعض ليس كل المسلمين فلا يصح رميهم ، اطلاقاً ، بالجمود والتجبر ، كما لا يصح اتخاذ مظاهر البؤس في بعض المناطق الاوروبية مقياساً للحكم على نتائج الحضارة الغربية . وسنحاول التدليل على ان الحركة الاسلامية قابلة للتطور ، وان الشعوب الاسلامية عرفت في تاريخها اكثر من تحول ، بما يجيز للباحث ان يفترض فيها القدرة على الاستمرار في التطور .

يقول « غولدزهر » في كتابه « الاسلام عقيدة وشريعة » : « ان الاسلام هو الخضوع ، خضوع المؤمنين لله . وهذا التعريف الذي يحدد علاقة المؤمن بالخالق هو اجمال للعقيدة ، مظاهرها ومبادئها واشكالها وطقوسها . فالمسلم هو من سلم امره لله ذي القدرة غير المحدودة ، متنازلاً عن ارادته الذاتية .

« سأل وثني مصعب بن عمر : ما السبيل الى دخول الدين الجديد ؟

١ اندره سرفيه في « الاسلام ونفسية المسلم » .

فاجاب مصعب : يجب ان تتوضأ بالماء وان تشهد ان لا اله الا الله
وان محمداً رسول الله . »

لم يكن الاسلام ، في اول عهده ، بحاجة الى مساجد ورجال دين
كان الشرع هو القرآن ، اي مجموعة الآيات التي انزلت على النبي محمد .
وقد كمل الكتاب المنزل طائفة من الاحاديث النبوية لا ينكر
اثرها في ما حققه الاسلام من توسع وانتشار . وهكذا سجلت
الحركة الاسلامية تطورها الاول .

وفي عهد الخلفاء الأول توصلت الجماعة الاسلامية الى ان تكون
امبراطورية عالمية بفضل مائة التنظيم الداخلي واتساع نطاق الفتوحات ،
بعد ان كانت جماعة دينية منتشرة حول مكة ومؤسسة سياسية
بدائية . وقد عرضت للإسلام في الوطن الام وفي الامصار التي
اخضعها حالات جديدة لم يألفها ، فاعتمد نظام ملكية الارض عوضاً
عن نظام القبائل المتنقلة ، ووضع للحكم قواعد خاصة .

ولئن يكن النبي المصلح الاول في دنيا العرب فمؤسس الدولة
العربية الحقيقي هو الخليفة عمر الذي جعل منها ملكية عسكرية .
وقد وقع العرب في سوريا على الادارة البيزنطية المنظمة فتبنوها ،
وفي بلاد فارس ومصر وافريقيا اخذوا بعين الاعتبار العادات
والتقاليد المستمدة من اقدم الحضارات ووفقوا بين الحقوق الموروثة
والحقوق المكتسبة حديثاً .

ان السبل التي خطها القرآن لمواجهة هذه الحالات لم تكن كافية .

١ ديون وكوبولاني في « المنظمات الدينية الاسلامية » .

Deppont et Coppolani, les Confréries Religieuses Mnsulmanes.

غالباً أحكام الشرعية التي تضمنها لا تفي بالحاجات التي انبثقت دفعة واحدة من الفتوحات وملاساتها . ولا شك في ان متولي شؤون الدولة كانوا من خيار المسلمين ، الا ان هذا لم يمنهم من الاهتمام بتوفير معالم النمو لقوة الدولة السياسية بحيث تتمكن من الحفاظ على الامصار التي استولت عليها وتحضع الاقوام لسيطرة العنصر العربي ، قبل الاهتمام باقامة الدولة الجديدة على قواعد مستوحاة من الشرع ومنطبقة على تعاليم القرآن . وفي الوقت نفسه قام بين المسلمين من يسعى لتوجيه الدولة وجهة دينية منسجمة مع الخطوط التي رسمها النبي . وقد استند هذا الفريق الى السنة والعرف والحديث الشريف . وهكذا صار للاسلام شرع مقدس وشرع وضعي يستند الى احاديث نبوية وتقاليد مكمل للقرآن .

ظل القرآن فوق الجدل عندما تعددت الاجتهادات وتضاربت ، وذهب الفقهاء في تفسير الاحاديث مذاهب مختلفة . وقد ادى سقوط خلافة الامويين وقيام خلافة العباسيين الى حصول تطور اساسي في نظام الحكم ، اذ حل النظام الديني محل النظام السياسي الذي انشأه الامويون ، واتخذ بنو العباس من كونهم متحدرين من صلب النبي مركزاً لحقهم في السيادة ، واقاموا على انقاض نظام الحكم السابق نظاماً منطبقاً على السنة : نظام الدولة الدينية ، واقاموا للدولة قواعد تتمشى عليها مستوحاة من الشرع الديني (الشرع الشريف) والاجتهادات المنبثقة منه . وهكذا نشأت في الاسلام فكرة الدولة الدينية ونمت ، وتوسع الحكم الجدد والفقهاء في تفسير الاسلام فقالوا انه الخُصُوع لله وللشرع والاجتهادات اساطين الفقه . وقد استند بعض الباحثين الى هذا التحول فيما زعمه من ان الاسلام غير قابل للتطور . ولو

ان هذا البعض رافق الحركة الاسلامية منذ ظهورها لما تسرع في الحكم عليها بالجمود ولما وجد ، من ثم ، في قيام الدولة الدينية وانتصاب عرش القضاة (الفقهاء) في ظل خلافة العباسيين ، دليلاً على التأخر ومظهراً من مظاهر التعصب . ففي ظل الحكم التيوقراطي هذا اتسع صدر النظام لقيام اربعة مذاهب فقهية اعتبرت كلها منطبقة على الشرع وهي : الشافعية ، والمالكية ، والحنفية ، والحنبلية .

ولكن لما كان العرف غير ثابت ، نظرياً ، فقد اخذ الفقهاء بمبدأ الاجماع المرتكز على قول النبي : « لا تجمع كلمة المسلمين على خطأ » . وعلى هذا المبدأ الاساسي تقوم الارثوذكسية الاسلامية ، وعلى ضوئه يمكننا تتبع تطور الاسلام التاريخي سياسياً وعقائدياً وقانونياً . فما 'يجمع المسلمون على اعتباره صحيحاً وعادلاً' هو صحيح وعادل . وانه لمن قصر النظر اسقاط هذا المبدأ من الحساب عند التصدي لحل المسائل الاسلامية .

وقد اتاح مبدأ الاجماع هذا للحركة الاسلامية ان تتطور بحرية متحررة من تحكم الحرف . بيد ان الاسلام بقي واحداً في جوهره : لا اله الا الله ومحمد رسول الله . وبالرغم من نشوء الحركة الشيعية وحركة الخوارج بقي الاسلام واحداً ، ولكن المسلمين انقسموا شيعاً واحزاباً . وقام جدل في العهد العباسي حول جواز نقل الكتاب الى الفارسية وغيرها من اللغات ، مع العلم انه انزل على النبي بالعربية . وكان الفقهاء في الكوفة والبصرة قد قالوا بعدم جواز قراءة الفاتحة بغير العربية ، فجاء ابو حنيفة وتلاميذه وقالوا بجواز قراءتها بالفارسية ، بما اتاح لمسلمي بلاد فارس ترجمة القرآن ، مسجلين بذلك خطوة لا بأس بها نحو نشر الدين الجديد في آسيا الوسطى

والشرق الاسيوي .

اشرنا الى هذه الحوادث للتدليل على ان الاسلام بقي قابلاً للتطور حتى في ظل الدولة الدينية . وتابع تطوره ايام الفتح التركي - المغولي . الا ان الدولة ، في عهد المغول ، طغت على الدين ، واقتبس الاتراك العثمانيون عن المغول مفهوم الدولة العلمانية - الدينية ، فنادوا باول سلطان انتزع الخلافة من العباسيين سلطاناً وخليفة ...

وبقيام الدولة التيوقراطية - العلمانية سجل الاسلام تطوراً آخر ، ولكن على حساب النفوذ والسيطرة العربيين . ولا بد من الاعتراف بان ثورة الحسين بن علي (١٩١٧) لم تكن ثورة رجعية ، بل كانت انتفاضة العرب في وجه الاتراك وان يكن بعث الخلافة بمفهومها الاصيل احد اهدافها .

اما الحركة الوهابية التي ظهرت في القرن الثامن عشر فقد قامت لمحاربة البدع في الاسلام وللحفاظ على جوهره ، ولكنها انغمست بالسياسة واستطاعت في القرن العشرين (١٩٢٥) اخراج الهاشميين من مكة .

وجاء مصطفى كمال (اتاتورك) لفصل الدين عن الدولة في تركيا الحديثة ، وجعل من الخليفة المرجع الديني الاعلى للمسلمين بعد ان جرّده من السلطة الزمنية ، ثم عاد فالغى الخلافة واعلن تركيا جمهورية علمانية ، بما قضى على وحدة الاسلام سياسياً ودينياً .

يتضح بما اسلفنا ان الحركة الاسلامية لم توحد بابها في وجه المؤسسات الحديثة المنبثقة من الحضارة الغربية ، وان الجمود لم يكن قط الطابع المميز لهذه الحركة ، حتى في عهود الرجعة . اما معارضة المستمسكين بالحرف ، الناقمين على كل جديد ، فقد وضع حداً لها علماً

وفقهاء استطاعوا التوفيق بين العلم والدين ، ووجدوا في القرآن والحديث مستندات تجعل التطور ميزة من ميزات الاسلام . ويتضح كذلك ان العالم الاسلامي في ايامنا لا يقل حرصاً على توازنه من اسلام العصور الخوالي : انه يحاول الحفاظ على ايمانه دون ان يقعده الايمان عن مسامرة ركب الحضارة . بيد ان مدى تطور الاسلام ليس واحداً في كل مكان . ففي تركيا تبني اتاتورك القانون المدني السويسري وقانون التجارة الالماني وقانون الجزاء الايطالي . وفي شبه الجزيرة العربية لا محل لغير الشرع المستمد من الكتاب الكريم والحديث الشريف . اما مصر فقد وجدت حلاً وسطاً فأبقت حكم الشرع سائداً في قضايا الاحوال الشخصية ، واقتبست من الغرب احكام قانونها الجزائي .

لقد فقد الاسلام وحدته يوم زالت الخلافة ومشیخة الاسلام من الوجود . اما المحاولات التي بذلت لبعث الخلافة فقد اصطدمت بالخلافات السياسية ، وبالتنافس القائم بين العرب والطورانيين . ولئن يكن هذا لا يعني ، بحال من الاحوال ، ان الدين فقد اهميته كرابطة تشد المسلمين بعضهم الى بعض ، فمما لا شك فيه ان هذه الرابطة تقوى وتشتد كلما واجهت الشعوب الاسلامية حركة معادية للاسلام نفسه ، ولكنها تضعف وتتراخي على الصعيد السياسي حيث تبرز الحُصائص العنصرية وتتضارب المصالح والاتجاهات .

نفسية المسلم المعاصر

قلنا ان الاسلام معناه الخضوع للمشئة الالهية (اسلم امره لله) .
والاسلام يؤدي معنى آخر هو « الامة الاسلامية » . ففي الشرق
يخلطون بين الدين والوطن . وقد لقي المسيحيون والمسلمون في
الحوض الشرقي للبحر المتوسط صعوبة بل مشقة كبيرة في هضم
فكرة فصل الدين عن الدولة . وقبل ثورة تشرين كان قيصر روسيا
رئيساً للكنيسة الارثوذكسية الروسية . اما الشعوب التي انفصلت
عن جسم الامبراطورية المقدسة ، كالشعب البلغاري مثلاً ، فقد حرصت
على اختيار الرئيس الديني الى جانب اختيارها بيتاً مالكاً جديداً .
وفي الامبراطورية العثمانية كان الناس ، اذا سئلوا الى اي الامم
ينتمون ، لا يجيبون : « نحن اترك او سوريون او لبنانيون » ، بل
يكون جوابهم : « نحن مسلمون او روم ارثوذكس او موارنة الخ... »
هذا المفهوم الديني للامة قد ترك طابعه في نفسية الشرقيين .
وسنرى في فصول لاحقة ان ازالة هذا الطابع صادفت عقبات ذات
بال ، وبصورة خاصة في الاقطار الاسلامية المشبعة بفكرة الدولة
الدينية . وقد نشأت دول جديدة في الشرق الادنى على اساس
قومي ، ولكن الدولة الدينية لا تحرم نصراء حتى في اوساط المثقفين .

في الاسلام قوة اخرى شاء بعضهم ان يجد فيها علة جموده ،

عنينا الخضوع المطلق لمشئة الله . يقول « غوايو » في كتابه « لا دين الغد » : ان كل دين يحمل في ذاته عنصر انحلاله ، وهو العنصر الذي يكون قد ساهم باوفر نصيب في ظهور الدين وانتشاره : استقلال الفرد في الاختيار . فاذا سلمنا مبدأ الخضوع المطلق لمشئة الله يكون الاعتقاد بالمقدر (المكتوب) من العوامل التي تقعد بالمسلمين عن العمل والسعي وبذل اي مجهود ، ولا يكون في الاسلام ، بالتالي ، شيء اسمه حرية الاختيار .

ولكن مفكري الاسلام ينكرون وجود الحتمية في دينهم ، مستشهدين باحاديث النبي وبالقرآن نفسه . وفي هذا يقول الشيخ محمد عبده : « ان في الاسلام لقضاء على الحتمية ، ففي ست واربعين آية كريمة تسفيه صريح للمقدر ، ومع هذا فالاعتقاد بالحتمية موجود في الدين الاسلامي ، وهذا الواقع لا يحتاج الى تفسير . ولا يجادل عاقل في ان الانسان حر في تصرفاته ، ولكن يجد من هذه الحرية شرائع شاءت القدرة الالهية ان تتفق وطبيعة الانسان وتلائم مع حاجاته وتوجه مواهبه وتلجم غرائزه . بهذا المعنى ، وهذا المعنى فقط ، يفهم المسلمون الحتمية او المقدر . »

يفهم من هذا ان الاعتقاد بالمقدر لا ينفي كون الانسان مخيراً ، ولكن حرية الاختيار يجد منها واجب الخضوع لاحكام الدين . وهذا الواجب لا يتهرب منه مسلم واحد ، لان لا وجود للملحد في صفوف المسلمين ، ولان كل واحد منهم يحفظ القرآن ويلزم الحدود التي رسمها . ولئن يكن كل مسلم يعتقد ان ما يصيبه من خير او شر مكتوب له في لوح القدر ، فهذا الاعتقاد لا يقعد به عن العمل . وعلى هذا يمكن القول ان عنصر الانحلال الذي يتحدث

عنه « غوايو » ليس هو في الاسلام « استقلال الفرد في الاختيار » ،
فالمسلم يمكنه ان يتطور ، يرشده الدين ويحميه ويشده دائماً الى دائرته ،
ولكنه لا يعمل بجرية ما لم تتوافر له الادلة على ان عمله متفق
واحكام الشرع ..

والنشاط الاسلامي هو ، بوجه عام ، خاضع لمركب التفوق .
فالمسلم ينكر على غير المسلم ، بل يحتقر احياناً ، ما يفعله هذا من
اجله . فقد كتب الشيخ عبد الحق احد اركان حزب « الاتحاد
والترقي » بصدد الاصلاح السياسي في الامبراطورية العثمانية مخاطباً
الاوروبيين ، قال :

« ... اجل ، ان الدين الاسلامي يناصب دنيا التقدم ، دنياكم ،
عداء سافراً . فاعلموا ، ايها المراقبون الاوروبيون ، ان المسيحي ، ايأ
كان مركزه ، هو في نظرنا ، وبمجرد كونه مسيحياً ، اعمى البصيرة ،
بمجرد من كل كرامة انسانية . الا ان شعورنا بالكراهية نحوكم لم
يمنعنا من درس مؤسساتكم السياسية ونظامكم العسكري . ان تركيا
الفتاة وجمعياتنا وطوائفنا ، على تنوعها ، تحذوها فكرة واحدة الى
السير نحو هدف اسمي ، ولكن ما هو هذا الهدف ؟ هل هو الحضارة
المسيحية ؟ ابداً . فالاسلام هو اسرة دولية كبرى ، والمؤمنون
اخوة تجمعهم وحدة الشعور ووحدة الايمان . ويعود الى الخليفة
توثيق الصلات التي تشد المؤمن الى المؤمن ، وجمع المسلمين كافة
تحت راية الايمان . »

ويقول الكاتب التونسي بشير صفار في مؤلف وضعه عن تونس :
 « تقطن افريقيا الشمالية مجموعة شعوب تباهي بانتسابها الى عنصر كريم
 هو العنصر العربي ، وتعتنق ديناً موحداً هو الدين الاسلامي . هذا
 الدين وذاك العنصر فتحا واستعمرا امبراطورية اين منها الامبراطورية
 الرومانية على ضفافها واتساع رقعتها . وقد سجل الافريقيون
 الشاليون ، وحدهم ، من الابداد ، احتلال جنوب فرنسا ستين عاماً ،
 واسبانيا ثمانية قرون ، وصقلية ثلاثة قرون ... اقول هذا لاذكر
 الذين نسوا او تناسوا من نحن اننا ننسب الى دين وعنصر وحضارة
 تضاهي ، بالابداد التاريخية وبالقدرة على الابداع ، مطلق اي دين
 واي عنصر واية حضارة . »

مثل هذا التصريح وذاك هو ما حمل اندره سرفيه على القول :
 « ان الشرع الديني في العالم الاسلامي قد اعطى المسلمين ، على اختلاف
 الدار وتعدد العناصر ، وحدة التفكير والشعور والادراك والرأي .
 فالطابع المميز للعربي ، والمسلم من ثم ، هو ايمانه الذي لا يتزعزع
 بتفوقه . فالحقيقة المطلقة ملك يمينه ، ولا خلاص خارج الاسلام ، بما يفضي
 الى انقسام العالم الى مؤمنين وكفار (دار الاسلام ودار الحرب) . »
 من هذه البسيكولوجية القطعية الى حد ما ، انبثقت حركة
 الوحدة العربية وحركة الوحدة الاسلامية فضلاً عن حركة الوحدة
 الطورانية . وقد حاولت هذه الحركات جميعاً استغلال ايمان المسلمين

١ اندره سرفيه في « الاسلام وبسيكولوجية المسلم » ١٩٢٣ .

André Servier, *l'Islam et la Psychologie du Musulman*, 1923.

المغرب : لم يتفرد الاسلام بهذا ، فبعض الكنائس المسيحية يقول ان لا خلاص خارج

الكنيسة .

بتفوقهم . ولئن بدت لنا النفسية الاسلامية المعاصرة اقل وضوحاً عند احتكاكها بمسائل الساعة ، فهي ، في الواقع ، مطبوعة بالطابع العميق نفسه . يدلنا على ذلك ايمان مسلمي اليوم بامية الاسلام ، وشعورهم بتفوق دينهم ، وبتفوق العنصر العربي الذي نشر الاسلام في العالم ، واقتناعهم بانهم قادرون على العمل ، لا باختيارهم المطلق ، بل في نطاق الحدود التي يرسمها الدين ومصلحة الاسلام . ومن هنا كان تحفز العالم الاسلامي - برغم انفتاحه واستعداده لتفهم حاجات العصر - للانفجار في كل مرة يحصل لديه اقتناع بان ثمة مساساً بالدين . وحتى العالم الشيعي ، الذي يبدو للوهلة الاولى اوسع افقاً واشد تسامحاً ، هو اكثر تشدداً من المستمسكين بالحرف في التقيد باحكام الشرع ، مع العلم ان شخصية علي كانت ذات طابع صوفي صريح . وشاهدنا على ذلك المظاهر التي ترافق الاحتفال السنوي بذكرى استشهاد الامام .

بمحاول الاسلام المعاصر ، بطرق غامضة ، تحقيق الوحدة التي فقدها . « يمكن الخلافة بل عليها ان تستعيد مركزها الروحي . فالجمعيات الدينية ، التي كانت بالامس معاهد لاهوتية تقصر اهتمامها على المناظرات الفلسفية ومناقشة العقائد المتضاربة والمسائل المجردة ، قد وجدت نفسها مسوقة الى جمع الانصار ومسايرة الرأي العام ومجاراة نزعاته ، بما اضطرها الى ان تستحيل جمعيات ذات اتجاهات سياسية » .

٨ جولي : « الجمعيات الدينية والمارابطون في الجزائر »

Joly; Les Confréries Religieuses et Maraboutiques en Algérie.

على هذا الصعيد السياسي نشهد في ايماننا يقظة الشعوب العربية متجلية بشكل جديد ، لانه لم يبق هناك خلافة ولا مشيخة للاسلام . وليقظة العرب تجاوب في العالم الاسلامي طرأ . اما الشعور الذي اوجد في الماضي حركة الوحدة الاسلامية وحركة الوحدة الطورانية ، فانه يقود اليوم الى التحسس بالقومية . ذلك بان الشعوب الاسلامية ، بعد زوال السلطة المركزية ، دينياً وسياسياً ، انتقلت من الامة الاسلامية الى مفهوم ذي طابع خاص يتيح لها تحقيق مطامحها مع الحفاظ على الرابطة الروحية التي تشد المسلم الى اخيه المسلم . وهكذا حلت فكرة الوطن محل فكرة الامة الاسلامية اولاً ، وفكرة الامة العربية ثانياً .

قد يكون في جملة العوامل التي ادت الى هذا التطور اطلاق المسلمين المتعلمين على المفاهيم الاوروبية . وقد يكون في جملتها كذلك اصطدام الاسلام بالحضارات التي صادفها في طريقه . ففي آسيا الصغرى والوسطى احتك الاسلام بالحضارتين الفارسية والهندية . وفي الشرق الادنى احتك بالحضارة المصرية الرفيعة . فاذا لم يكن بالامكان اثبات وجود حضارة اسلامية ففي وسع الباحث ان يفترض ان الاسلام ، بالاضافة الى الدين الجديد والتنشئة الروحية الذين حملها ، قد اوجد بيئة صالحة لهضم المعارف البشرية المكتسبة هنا وهناك وترجمتها ، وان العرب نقلوا هذا النتاج الفكري من الشرق الى الغرب . يضاف الى هذا ان العرب ، خلال توسعهم ، عملوا على انماء سجاياهم بالاقتباس من الشعوب المغلوبة على امرها ، فكانت الحضارة العربية التي نجد ابداع آثارها في دمشق وبغداد والقاهرة وفي الاندلس ، والتي كانت في القرون الوسطى بمثابة مركبة للفكر

القديم ولل فلسفة الاغريقية . وقد ازدهرت في اشبيلية و غرناطة المعاهد العلمية ، ومنها انتقلت العلوم الى مونبليه ، ومن هذه الى باريس واوكسفورد ولوفان . ولا ريب في ان انتقال الفكر القديم ، بفضل العرب ، قد ساهم مساهمة كبيرة في اثناء الفكر الحديث . ولم ينس المسلمون الرسالة الانسانية التي ادوا . لهذا نراهم معتمدين بما ادوا ، مقتنعين بانهم مدعوون لقيادة موكب الحضارة ، وليسوا في وضع يجعلهم خاضعين لحضارة الغرب .

قبل الاسلام ، ما عبر العرب عن احساسهم قط بغير الامثال والحكم المفرغة بقالب شعري ، وبالملاحم والحكايات ذات الطابع الفروسي (غرام غنوة بعبله) . وكان الشعر يحتل المقام الاول من اهتمامهم . ومن احتكاك العرب الفاتحين بالشعوب المغلوبة على امرها نشأت ، كما اسلفنا ، الحضارة العربية البحتة التي اتاحت للفاتحين الاطلاع على نتائج الحضارات الغربية . ولا ننسى ان الفنون والعلوم بقيت في الشرق مدة طويلة وهي وقف على غير العرب . ففي سوريا تابعت المعاهد المسيحية رسالتها ، وفي بلاد ما بين النهرين فتحت الاندية الفكرية القديمة في البصرة والكوفة ابوابها لاستقبال العرب والفرس والمسلمين والنصارى واليهود والمجوس . وفي تينك المدينتين اطلع الفاتحون على الدراسات العلمية ، اول ما اطلعوا . وما لبثت العلوم العربية في الفلسفة والطب ان اضحت جديدة بالحضارات المنقرضة . وكان للمؤثرات الفارسية واليونانية المسيحية فضلها في هذا التطور .

فبفضل الفرس عرف مسلمو سوريا حكمة الهند وطبقوا الفلسفة على دينهم ، ثم نشروا الحضارة الشرقية في الصين وبلدان الغرب التي كانت قد عرفت بواسطتهم البوصلة وتعلمت صناعة الخمر والحرير واخذت

بالثقافة اليونانية في مدارس اورفه ونصيبين وحرّات وجندى
سابور .

وقبل ان يتعرف المسلمون المتعلمون الى الفكر اليوناني ، كان
العالم الاسلامي غريباً عن المسائل العلمية البحتة . وفي العام ٧٥٠
استقدم الخليفة العلماء السوريين الى بغداد ، فما عثمت حتى اصبحت
مركزاً فكرياً ينافس المدارس الاغريقية الذائعة الصيت . وبعد
ترجمة المؤلفات الاغريقية في الفلسفة والطب والرياضيات ظهرت
مصنفات لكتاب ومفكرين مسلمين يمت معظمهم باجداده بصلة
الى مدرسة ارسطو والمدرسة الافلاطونية الجديدة .

وقد قسم العلماء العرب العلوم الى علوم عربية وعلوم قديمة
أو غير عربية . وتشتمل الاولى على كل ما له صلة بالعقيدة وعلم
الاخلاق واللغات والآداب والتاريخ ، وتشتمل الثانية على الفلسفة
والرياضيات والطب . وكانت الفكرة الاساسية ان علم اللاهوت
او الالهيات يجب ان يشكل في كل علم الاساس والهدف ، وانه
ينبغي للعلماء ان يعملوا في نطاق الاسلام بحيث تؤدي دراساتهم
الى فهم العقيدة وخدمتها . ولا ريب في ان هذا المفهوم للعلم
والعلماء لا يزال كامناً ، ولكن بشكل غير واضح ، في العقل الباطن
للمسلم المعاصر ، مؤلفاً جزءاً من بسكولوجيته .

ولما كانت الالهيات والاخلاقيات جزءاً من القرآن لا يتجزأ ،
فقد جاءت الآثار الادبية المتعلقة بهما من نتاج الذين تصدوا للدراسات
الدينية . واهتم العرب بعلم اللغات اهتماماً خاصاً الى جانب اهتمامهم
بالالهيات والاخلاقيات . ذلك بان اللغة العربية كانت اللغة الدينية
والرسمية ، مما استوجب ان يكون اللاهوتيون متضلعين من اللغة ، عارفين

باصولها ، وقد عني هؤلاء بضبط قواعدها بالاستناد الى القياس .
 وجدير بالذكر ان علم اللغات كان له تأثيره في عرقلة موكب
 التطور الفكري في العالم الاسلامي ، لان غلاة الباحثين في الالهيات
 اتخذوا من هذا العلم سلاحاً للحؤول دون اقحام الفلسفة الاغريقية
 في الجدل الديني ، وكانت حجبتهم ان اللغة العربية غنية بالمترادفات
 التي تمنع مدرسة ارسطو استخدامها في العلم الصحيح . يضاف الى
 هذا ان التعمق في درس المفردات والنصوص واعتماد القياس قاعدة
 اساسية حملا للاهوتيين على اتباع الاسلوب نفسه في الجدل الديني .
 وادى القياس الى انزال ما يجمع عليه المسلمون منزلة القاعدة
 المقررة ، ووقف في الوقت نفسه في وجه كل تجدد برفضه الكلمات
 المولدة . ويمكن القول ان العناية باللغة قد ساهمت الى حد كبير
 في استمساك الباحثين بالشكليات ، وان مبدأي الاجماع والقياس لا
 يزالان قائمين ، فليس من الحكمة في شيء تجاهلها عند اخضاع
 الشؤون الاسلامية المعاصرة لدراسة موضوعية رصينة .

وترتب على العناية باللغة والتدقيق في اختيار المفردات وعلى
 الاسلوب المرن الذي اتبع في كتابتها - هذا الاسلوب الذي يساير
 مقتضيات الحال وشتى الاهواء - نشوء فن جديد هو فن الوشاء او
 النقوش الموشاة باشكال النباتات والاوراق ، لان القرآن قد حرّم
 الرسوم التي ترمز الى البشر .

وفي هذه الاثناء كان الخلفاء ، حراس الايمان الصحيح ،
 يتخذون اقسى التدابير ضد العلوم المسماة قديمة وضد الفلسفة
 الاغريقية . فقد جاء في امر (فرمان) اصدره المنصور في العام
 ١١٦٣ « ان الله جعل نار جهنم للذين زعموا ان الحقيقة يمكن

الاهتداء اليها بالعقل المجرد . « ولعل المقصود به — هذا الحكم القاسي جماعة الفلاسفة المسلمين الذين كانوا — كما ذكر وولف — يميلون الى تمييز دين الشعب « القائم على حرفية القرآن » من دين المتعلمين القائم على دراسة فلسفية . وقد ترتب على تدابير الخلفاء بقاء الجامعات الاسلامية الكبرى وقتاً طويلاً موصدة الابواب في وجه الدراسات غير الدينية ، بينما كان الشعر والتاريخ والجغرافية تسير تقدم العلوم المسماة عربية .

يتضح مما تقدم ان الحضارة العربية واقع تاريخي لا يمكن انكاره او تجاهله . فقد كان لها فضل نقل النتاج الحضاري من الشرق الى الغرب ومن الغرب الى الشرق ، وكان لها فضل تلقيح اوروبا بالفكر الاغريقي الذي تلقفه العرب وهو يوشك ان يتلاشى . ولئن يكن بعض الجمود قد سيطر على هذه الحضارة في اعقاب القرون الوسطى ومن جراء تنكر المفكرين المتزمطين للعلوم غير العربية ، فقد حرّكها مجدداً احتكاك العالم الاسلامي بالحضارة الاوروبية خلال القرنين التاسع عشر والعشرين .

ولا بد من الاعتراف بان استرجاع الاندلس الذي تم على حساب التوسع العربي لم يكن رفيقاً بالفاتحين القدامى ، وكان « ابناء الشرق » الذين احتكوا بالفرنجية وبالقوطيين الغربيين قد ادركوا ان حضارة هؤلاء الاوروبيين ليست ارفع من حضارتهم هم . فبدىي والحالة هذه ان يزيدهم هذا الاحتكاك اقتناعاً بتفوقهم كعرب ومسلمين . وقد اختارت الكنيسة الكاثوليكية هذا الوقت بالذات لانشاء نظام الفروسية . وفي اسبانيا رافق اخراج العرب منها اعمال همجية . وجاء ديوان التفتيش الاسباني يقطع الطريق على كل تفاهم بين الحضارتين

الغربية والعربية .

وكان اجتياح العثمانيين لبعض البلدان الاوروبية من العوامل التي زادت الشقة اتساعاً . وبعد القديس لويس الذي احرز لفرنسا لقب « حامية نصارى الشرق » ، استطاع فرنسوى الاول ان يقيم اولى العلاقات الودية بين الاسلام والنصرانية بعقده حلفاً مع السلطان الخليفة (١٥٣٥) . وقد نظمت المعاهدة الامتيازات الفرنسية في الامبراطورية العثمانية ولاسيما التمثيل القنصلي ، محدثةً بذلك الحرق الاول في الستار الفاصل بين الشرق والغرب ، ومتمجةً للعلم الاوروبي الفرصة لدخول ارض الاسلام .

وفي اواخر القرن التاسع عشر ومستهل القرن العشرين بدأ العالم الاسلامي يلمس تقصيره في مضمار الرقي والتقدم في عصر البخار والكهرباء والاكتشافات العلمية . وقام في المعاهد الدينية والجامعات الكبرى ، حيث كان الطلبة يتلقون العلوم المسماة عربية ، اساتذة وطلاب يدعون الى اضافة العلوم العصرية الى برامج التعليم ^١ . وفي الوقت نفسه اقبل العديد من الطلبة المسلمين ، بعد انهاءهم التحصيل الديني ، على دخول المدارس والجامعات الاوروبية ، فترتب على هذا الاقبال ظهور تيارين احدهما التيار الاصلاحي وهو يضم من كانت ثقافتهم محض عربية او من كانت ثقافتهم العربية اعمق من ثقافتهم الغربية ، اما التيار الآخر فيضم الذين تلقوا العلوم في المعاهد الاوروبية او الذين تشبعوا بالثقافة الغربية .

١ قام طلبة جامع الزيتونة في تونس بتظاهرة احتجاجاً على ضعف برنامج العلوم العصرية في الجامعة مما يحول دون توليهم الوظائف المرموقة في بلادهم (تموز ١٩٥٠) .

بيد ان هذا التطور لم يتحقق ببسر ، فقد طال الاخذ والرد قبل ان تفتح الجامعات الاسلامية او بعضها ابوابها للعلم الحديث .
 وجدير بالذكر ان الاعتراف بفائدة هذا العلم لم يجر الى الاعتراف بالحضارة الغربية التي يعتبرها المسلمون حضارة مسيحية ، ولم يترب عليه ، بالتالي ، تحلي المؤمنين عن الاعتقاد الذي كان سائداً في عهد المنصور : العلم يمهد السبيل الى المادية والاحاد . لهذا رأيناهم ونراهم يجتهدون في التوفيق بين العلم الحديث واستمساكهم بالقواعد التي رسمها الدين ، ويرفضون كل تطور يجعل من حضارتهم صنواً للحضارة الغربية .

المسلم المعاصر يتلمس طريقه اذاً بكثير من الحذر ، اقتناعاً منه بان الحضارة الغربية ذات المرتكز المسيحي لا يمكن ان تمتزج بالحضارة العربية المشبعة بالطابع الاسلامي . ويرحب المسلمون المعاصرون بالعلم مع ما يحققه من تقدم ورفق ، ما دام لا يجر الى التشكك ولا يمس بالدين . فالاسلام صرخ من المِلاط (الاسمنت) لا يتزعزع ولا يجوز ان يظهر فيه اثر للتشقق . وعلى هذا الاساس يمكن الثقافة العلمية المعاصرة ان تجد تربة صالحة في المحيط الاسلامي . ففي البلاد الاسلامية غير المستقلة ، يمكن الاغضاء عن وجود سلطة غير اسلامية . اما معالم الرقي التي تحملها هذه السلطة فان بقاءها رهن باجماع السكان على قبولها .

يقول « بليغران » في كتابه « الاسلام في العالم » انه لا يجوز الضغط على طبيعة البشر ، فالتطور يجب ان يتم من تلقائه بقانون المحاكاة ان هو صادف تربة صالحة . وقد توصل الاسلام الى فرض نوع من الثقافة الدينية دل استمرارها على انها متلائمة وعقلية الشعوب

التي ارتضتها . والملاحظ بوجه عام ان مداراة هذه العقلية هو هاجس النخبة (وهي غير النخبة الدينية) التي تدعي التعبير عن امانى الشعوب دون ان تكون على تماس حقيقي بهذه الشعوب ومطامحها السياسية . وكثيراً ما ينتهي الامر بهذه المطامح الى التبلاور بحيث تصبح نسخة طبق الاصل عن المفاهيم الغربية ، ولكن لا يلبث المجتمع الاسلامي ان يستبعداها ويتنكر لها بفضل ثقافته الدينية المتأصلة . ففي تركيا الحديثة شهدنا انتفاضة دينية عنيفة ، وفي تونس افضت الحملة الرامية الى اعطاء التونسيين الرعوية الفرنسية الى مطالبة المسلمين الذين منحوا الجنسية الجديدة باعادتهم الى جنسيتهم الاصلية ليتسنى لهم الحفاظ على الفوائد التي يعود بها عليهم الشرع الاسلامي ، واسفرت الحملة نفسها في الجزائر عن نتائج مماثلة .

يتضح من هذه الشواهد ان موافقة المسلمين موافقة اجماعية على تطور ما هي الضمانة الاساسية لنجاح هذا التطور ، وان كل اصلاح يفرض على المسلمين فرضاً لا بد له من ان ينهار عاجلاً او آجلاً . وعلى الجملة ، ليس المسلمون واحداً حيال القضايا المعاصرة ،
فتحة :

- المؤمنون المحافظون المستمسكون بتقاليد الآباء والاجداد .
- المؤمنون المتشبعون بالثقافة الغربية والذين فتح امامهم العلم آفاقاً جديدة ، دون ان يفقدوا ايمانهم . وهذه الفئة من المؤمنين تطمح الى الاضطلاع بدور سياسي في اوطان تربدها مستقلة .
- الفئة الجاهلة التي يمكن ان يجرّكها التعصب ويملي عليها تصرفاتها .

تقدم معنا كيف استطاع المسلم المعاصر التوفيق بين العلم والدين ،

بتنكره للأفكار التقدمية المتنافرة وتعاليم القرآن . ولكن للمسألة وجهاً آخر . فالسواد الأعظم من المسلمين يحيا حياة مادية كالتى كان يحياها اجداده في القرون الوسطى . اما الذين اخذوا بأسباب الحياة العصرية بفضل احتكاكهم بالحضارة الغربية ، فان عددهم آخذ بالازدياد ، وليس من العسير تبين اى فارق بينهم وبين الغربيين من حيث درجة التحصيل والهندام والمسكن ومعاملة المرأة الخ ... وهذا الفارق من المسلمين يشق عليه ان يعدّه الغربيون غربياً عن الثقافة العلمية العصرية وعن طراز المعيشة الحديث ، فهو يبتعد شيئاً فشيئاً عن تقاليد الاجداد وعاداتهم . واننا لنلمس مثل هذا الابتعاد وهذا التطور في محيط العمال الذين يهجرون الارياف الى المبدن الصناعية في اوربا ، تجذبهم اليها الاجور المرتفعة ، فلا يلبثون ان يقطعوا كل صلة بينهم وبين محيطهم السابق . اما تعطشهم الى مثالية جديدة فانه يجعلهم عرضة للوقوع في حبال الاحزاب المتطرفة . ومع هذا يمكن القول ان تشبعهم بروحية الاسلام يوفر لهم قدراً كافياً من المناعة .

ومن المفيد ان نذكر ان المسلم المعاصر لم يبق بمعزل عن التيارات الفكرية المنبعثة من الشرق ، وانه ، الى جانب تأثره بدعاوات مصدرها تارة اوربا وطوراً اميركا ، يسعى لاستخدام هذه الدعاوات في تحقيق امانه ... فمبادىء ويلسون الاربعة عشر (١٩١٨)، وميثاق الامم المتحدة، ومناقشات هذه المنظمة، وخطب الساسة الاوروبيين والاميركيين ، والدعاوات التى يقوم بها علماء الانكلوسكسون والسوفييات ، هذه كلها قد ايقظت في المسلمين شعوراً وطنياً خاصاً هو في طريقه الى الحلول محل مفهوم الامة

الاسلامية^١.

اما والاسلام واحد، غير قابل التجزئة من حيث الجوهر بالرغم من الخلافات ذات الطابع الحُصُوصي بين الشعوب الاسلامية، فما عساها تكون الانفعالات الاسلامية حيال قضايا الساعة التي يتوقف على حلها كيان الديانات الاخرى الموحدة كالمسيحية والاسرائيلية؟ هذا ما نحاول تحليله في الفصل الآتي.

١ طلبت جامعة الدول العربية الاعتراف بها كمنظمة اقليمية متفرعة من الامم المتحدة اعتماداً منها على عطف الانكلوسكسون.

الاسلام على مفترق نفسي من تاريخه

قضى منطق الاحداث على المسلمين بان يوفقوا بين استمساكهم بالدين والاخذ باسباب الرقي التي توفرها الثقافة العصرية وتقدم العلوم . وقد ادى هذا التطور الى وقوف الشعوب الاسلامية وجهاً لوجه امام المسيحية التي ساهمت باوفر نصيب في اىصال العالم الى وضعه الحاضر . فما عساه يكون مسلك الاسلام المعاصر حيال المسيحية وحيال الموسوية ، مع العلم ان المسألة اليهودية ذات علاقة مباشرة بما يعني الاسلام والمسيحية ؟

يقول « غولدزير » ان التقليد الاسلامي يعبر عن شعور النبي بان رسالته تشمل البشر كافة . ولا جدال في ان موقف المسلمين الفاتحين من غير المسلمين المغلوبين على امرهم كان مشبعاً بروح التسامح . « لا اكراه في الدين » يقول القرآن الكريم . بيد ان هذا التسامح ما كان ليفيد منه غير « اهل الكتاب » اي النصارى واليهود ، لانهم موحدون واصحاب ديارتين منزلتين . اما الوثنيون فقد كان عليهم ان يعتنقوا الاسلام والا هلكوا .

والنصرانية تفضل الموسوية في نظر المسلمين . فتعاليم المهدي تقول : ان كل خطوة تخطوها البشرية في مضمار التقدم يسبقها حتماً ظهور مسيح (او نبي) يعود بالبشرية الى الصراط المستقيم . وقد ظهر المسيح بعد موسى فالنصرانية تفضل اذاً الموسوية . لهذا لا

يقبل اسلام يهودي ما لم يعتنق النصرانية اولاً .

لقد جعل هذا التسامح في زمن الخلفاء العباسيين رهنا بشروط .
 فسمح لاهل الكتاب بممارسة طقوسهم ، ولكن وضعهم في الدولة
 جعل دون وضع المسلمين ، وفرضت عليهم الجزية . حدث هذا
 والاسلام في ابان انتشاره وتوسعه . فلما انبرت له النصرانية واقامت
 من بيزنطة سداً منيعاً في وجه الموجة الاسلامية الطاغية ، ثم اوقفت
 هذه الموجة امام فيينا ، وفي الغرب بين تور وبواتيه ، انكفاً الاسلام
 وانكمش مقيماً من نفسه ستاراً بين الغرب والشرق الاقصى .
 وقد ادت المنازعات ، من ثم ، بين النصارى والمسلمين ، الى حفر هوة
 حقيقية بين اتباع الديانتين ، هوة لم تنجح الجهود التي بذلت وتبذل
 في ردمها . بيد ان اكتشاف سبل الاتصال التجاري بالشرق الاقصى
 من طريق رأس الرجاء الصالح ، واكتشاف اميركا ، وحفر قناة
 السويس وما رافق ذلك كله من انتشار الاوروبيين وتوسع دولهم
 في اسيا وافريقيا - هذه العوامل مجتمعة ساعدت على نمو التجارة
 الاوروبية وازدهارها بقدر ما ساعدت على انتشار نتاج الفكر
 الاوروبي . وقد انفتح العالم الاسلامي شيئاً فشيئاً على الثقافة الغربية ،
 وترك شتى المؤثرات والتيارات تتصارع على عتبته ، غاضاً الطرف عن
 تسلل بعضها اليه . وما لبث ان تبني العلوم الغربية التي لا تتنافى
 والعلوم العربية (الدينية) ، ولكنه حرص ولا يزال يحرص على الافادة
 من التقدم العلمي والتكنيكي دون ان يترتب على تقبله نتاج الفكر
 المسيحي تخليه عن حضارته الروحية والفلسفية والفكرية والفنية .
 وقد عرّف محمد اسعد بك في كتابه « الله اكبر » الاسلام
 المعاصر ، قال : « ان الاسلام المعاصر ينفتح في ذاته روح الفتح الذي

كان الحافظ الاعظم لاوائل المجاهدين في سبيل الله ليسلك سبيلين مختلفين للسيطرة على العالم . سيجدد الاسلام شبابه بفضل نشاط المناضلين من ابنائه تحت كل كوكب ، وعندئذ يفرض نفسه على حضارة الغرب البالية .

« ويقود الاسلام في طريق النصر القريب مصطفى كمال باشا وابن سعود . ولئن يكن اولهما قد تنكر للتقاليد الاسلامية معتمداً العقل وحده في بعث قوة الاسلام ، فنهجه هذا لا يضايق ابن سعود الذي يرجو بلوغ النتيجة نفسها عن طريق العود بالاسلام الى ما كان عليه في عهد الصحابة . ولا ريب في ان النهج السعودي هو القيم بالوصول بالعالم الاسلامي الى ما يصبوا اليه من قوة وسؤدد . »
يمكن القول ان وقوف الاسلام المتحفظ في وجه الحضارة الغربية البالية لم يبق موضع بحث في هذه الايام^١ ، ففي العام ١٩٥٢ بطلت المسألة ان تكون مسألة اخذ المسلمين باسباب الحضارة المسيحية ليستخدموا التقدم العلمي والتكنيكي في تأمين النصر للاسلام ، فقد برزت عوامل جديدة في قلب الحضارة الغربية نفسها ، وتخطت مرحلة الجدل بين المسلمين المتسائلين : أيجوز اقتباس وسائل الحضارة الغربية ام لا ؟ فما هي هذه العوامل ؟

افضت الحرب العالمية الثانية الى ظهور كتلة انكلوسكسونية وكتلة سوفياتية والى حصول انقلاب ثوري داخلي في نطاق المجتمع التكنيكي الغربي . فعلى حد قول فيرجيل جيورجيو في كتابه « الساعة الخامسة والعشرون » حققت روسيا بعد الثورة

الشيوعية اخطر تقدم تكنيكي سجلته الحضارة الغربية ، فهي قد اسقطت الانسان من حسابها متخذة من الآلة والانتاج اساساً لكل شيء في الدولة . وبعد ان اخذت روسيا من الغرب نظرياته ، انبرت تحاول حمل الشرق على اعتناق نظرياتها . وها هي الولايات المتحدة واوروبا تعقد الحناصر على مكافحة هذا التيار ، بعد ان كافحت النازية والفاشية . ذلك بان الشيوعيين والنازيين يريدون اخضاع الانسان لكتاتورية الآلة والاحصاءات ، مضحين بالفرد على مذبح النظريات والخطط والتساميم . اما الديموقراطيات فانها تقيم للانسان وزناً كبيراً وتحترم حريته الفردية . ولئن تكن الولايات المتحدة الاميركية تبدو لنا وشبكة الانزلاق على منحدر الاخذ بمبدأ الآلة والاحصاءات ، ففني تظاهر روسيا بالسعي الى تحرير العامل ما يذكر اميركا بوجود الانسان . اما بريطانيا العظمى وفرنسا ، البلد الزراعي ، فقد استطاعتا حتى الآن التوفيق بين الحرية الفردية وتقدم التكنيك ، ولكن المأساة ما تبرح قائمة بالنسبة اليهما .

لقد ادرك الكاثوليك في العالم المسيحي مدى الخطر الذي يتهدد البشرية . فذكرت السنة ١٩٥٠ ، السنة التي اعتبرتها روما مقدسة ، الناس بوجود قيم روحية ، فكان ذلك بمثابة اعلان الحرب على الشيوعية او الصوفية السوفياتية التي لا تعترف بوجود الكنيسة ولا تقيم للفرد اي وزن . وفي الوقت نفسه يقوم صراع سافر بين اليهود والمسلمين . ومعلوم ان يهود اوروبا فريقان : يهود اوروبا الشرقية الذين يحاولون الهجرة الى فلسطين لفرط ما يعانون من صنوف الاضطهاد ، ويهود حوض البحر المتوسط الذين يعتبرون مواطنين حيث هم ولا يطمحون الى اكثر من تقديم المساعدات

الى الحركة الصهيونية . ولا ننسى ان الصهيونية قد هوجمت وتهاجم في المؤتمرات الاسلامية ، ولا سيما مؤتمر القدس . وقد ادى قيام دولة اسرائيل ، النتيجة الزمنية للحركة الصهيونية ، الى تبلور المعارضة الاسلامية للصهيونيين في المشرق . ولكن اذا كان التنافر بين المسلمين واليهود يحول دون اتباع الديانتين على صعيد الوقوف في وجه التيار الشيوعي ، فهناك اوساط مسيحية ويهودية ترحب بتقارب يتم بين النصارى واليهود في الظروف الراهنة .

ان موقف الاسلام غير واضح وسط هذه البلبلة . وكل ما يمكن قوله في الوقت الحاضر هو ان الاسلام والمسيحية والموسوية يمكن ان تتزعزع بفعل نمو مجتمع محض تكنيكي ، ان هو لم يجرّ البشر الى الاتحاد ، فانه مفضّل الى انكار الحرية الفردية ، متحديةً الاديان السماوية والتقاليد المقدسة . ويبدو انه لا ندحة من قيام جبهة مشتركة تأخذ على عاتقها حماية القيم الروحية ، فهل يحتل الاسلام مكانه في هذه الجبهة ؟

لقد فكر فريق من الكاثوليك والاسرائيليين وبعض المسلمين في انشاء جبهة تتعاون في نطاقها الديانات المنزلة الثلاث ذات المنشأ الواحد والمثالية الواحدة . ولا ريب في ان الظروف الراهنة تجعل من قيام مثل هذا التعاون امراً مرغوباً فيه ، بل ضرورة من الضرورات .

ولا جدال في ان المفهوم الاسلامي للدين طغى عليه في معظم الاحيان الحرص على التزام حدود الشرع والدقة في تفسير ما جاء في الكتاب المنزل . ولا جدال كذلك في ان رجال الدين الاسلامي ، في حرصهم على التقيد باحكام السنّة ، لم ينكروا جواز

تبدل الاحكام تبعاً لتبدل الازمان . لهذا يظلم الاسلام ، من يرمي الشرع بالمجمود لان احكامه الاساسية ثابتة . فقد رأينا المسلمين يتطورون سياسياً واجتماعياً مجارة منهم للاحوال الطارئة وظروف المكان والزمان دون ان يضطروهم هذا التطور الى الابتعاد عن السنة ، اي ان الاسلام لم يوصد بابه في وجه التقدم والاصلاح لان الشرع عدو للتقدم والاصلاح . ولم يتنكر المحيط الاسلامي للمؤسسات التي احدثتها الحضارة الغربية ، فقد قامت حركات منسجمة مع التطور الديني الذي عم البشرية جمعاء .

كان اول دعاة الاصلاح ابن تيمية *Ibnou Taymiya* . وهو سوري توفي في السنة ١٣٢٨ ميلادية . وله مؤلفات يحمل فيها حملات قاسية على ما يدعوه « ضلال الزوايا والطرق » ، ويفند نظريات دعاة التصوف ، ويعدد اخطاء مفسري الاجماع ، ويهاجم عبادة الاصنام والمتعبدين للاولياء ، و « المتاجرين بالبركة »^١ . وقد طبق هذا الاصلاح في الحجاز محمد بن عبد الوهاب بانشائه الحركة الوهابية ، وفي تونس طبقه الحزب الدستوري ، ومن ثم الحزب الدستوري الجديد . اما في مراکش فقد استطاعت سلطة السلطان ، بالرغم من مقاومة البربر ، اعطاء الحركة الاصلاحية شكلاً سياسياً اكثر منه دينياً . وفي تركيا سحق الحركة مصطفى كمال باشا ، وايدها العلماء في سوريا وفلسطين ومصر (الازهر) ، وفي تونس شيوخ جامع الزيتونة ، وفي الجزائر خريجو الازهر والزيتونة . والحركة الاصلاحية حركة محافظة رجعية من حيث وقوفها في

١ وهو ما فعله لوتيروس بعد ان شق عصا الطاعة على الكنيسة الكاثوليكية .
- العرب .

وجه الاساليب العلمية التي طلعت بها الحضارة الغربية . انها « صليبية تهدف الى انقاذ الاسلام من براثن المسيحية » .

كانت ، في البدء ، رجعة ذات طابع ديني ضد التمدن ^٢ ، واسفرت في النهاية عن نتائج سياسية ^٣ . وقد ادت في الجزائر الى اضعاف نفوذ مشايخ الطرق والمنظمات الدينية والعائلات العريقة . وها هي تحاول ، في سوريا ومصر والمشرق وشبه الجزيرة العربية ، تحقيق الوحدة العربية التي تضر شعوراً عديداً للغرب وللتمدن الغربي . وقد ظهرت في الهند وبلاد فارس حركات معاكسة ذات اتجاهات جديدة ، فنشأ في بلاد فارس ، حيث ظهرت الصوفية ، مذهب البابية Babisme (في مطلع القرن التاسع عشر) .

والبابية (نسبة الى الباب) تقول بظهور الامام والمهدي ، الخليفة الروحي للامام علي . وعقب ظهور البابية ظهور البهائية القائلة بوحدة الـكون قائمة على الايمان والتفاهم . وتوصي البهائية اتباعها بقراءة العهدين القديم والجديد ، ولكنها تقول ان القرآن هو الكتاب المقدس الوحيد ، وفي الوقت نفسه تنقد الحديث الشريف والسنة . وقد انتشرت البهائية بسرعة في المحيط الهندي وافريقيا السوداء . ولها في ايامنا فروع في انكلترا واميركا . ويبشر البهائيون باتحاد

١ حسن : « كيف تهلك الجزائر الفرنسية » .

Hassan, *Comment périra l'Algérie Française.*

٢ ترجمها الشيخ جمال الدين الافغاني، ثم قادها بحزم الشيخ محمد عبده .

٣ خطب الشيخ العقبي في المؤتمر الاسلامي الذي عقد في ٧ حزيران ١٩٣٦ فقال مخاطباً المسلمين : « يوم تبتمدون عن الرابطين (يقصد الطرق والزوايا) وتنهلون من موارد العلم والمعرفة فكأنكم انطأوا بالاستقلال » .

النصرانية والاسلام ، ولكنهم يرمون بالمرقوق عن الدين السنيين والشيعة .

نمت الشيعة في البيئة الطورانية ، وفيها نمت كذلك الشيعة التي حملت الى الاسلام المعاصر بذور الفكر الحر . بينا اراد الاصلاح في الشرق الادنى وافريقيا العود بالاسلام الى صفائه البدائي . وفي البيئة الطورانية قامت المحاولات الاولى للتوفيق بين السنة والشيعة . ولقد شغلت بلاد فارس (ايران اليوم) المقام الاول بين مجموعة الدول الشيعية لانها نذبت نفسها للوقوف في وجه الامبراطورية العثمانية السنية . وفي العام ١٧٤٧ عمل نادر شاه على التوفيق بين المذهبين . والتأم مجلس علماء بدعوة من الشاه ووضع مشروع تسوية يقضي باضافة المذهب الشيعي الى المذاهب الاربعة التي يقول بها السنيون . بيد ان الخلاف التقليدي ذرّ قرنه مجدداً بعد وفاة نادر شاه . وفي القرن التاسع عشر تضافرت السنة والشيعة في القوقاز في الدفاع عن الاستقلال ، وقاد الكفاح ضد الروس « شامل امام » على رأس هريديه من شراكسة وجيورجيين ، ولكن الاتحاد السني - الشيعي في القوقاز كان موقوتاً . وفي ٢٣ آب ١٩٠٦ التأم مؤتمر اسلامي في « قازان » المركز الديني للاسلام في عهد القيصرية ، وعرض ، فيما عرض ، لمسألة التعليم الديني ، فقرر اعتماد كتاب واحد للشيعة والسنيين ، على ان يكون الاساتذة من الطائفتين .

وسجل تقارب مماثل بين الطائفتين على الصعيد الاجتماعي في بلاد ما بين النهرين حوالي سنة ١٩٢٠ بموافقة النجف الاشرف . بيد ان التقارب هنا وهناك بقي محلياً ، اي ضيق النطاق . ومن المشكوك فيه ان يشمل ، في وقت قريب . العالم الاسلامي طراً .

وفي الصراع الحالي بين الكتلتين الانكلوسكسونية والسوفياتية لم تغفل كتابهما شأن المسلمين . وسنعرض في فصل لاحق للجانب السياسي من هذه المسألة . اما في الحقل الروحي ، فواضح ان الكرملن ، بعد ان حارب في بلاده الاسلام اسوة بباقي الاديان ، عاد فادرك ان الاسلام قوة لا يستهان بها وعامل يمكن اللجوء اليه في التأثير على ملايين الناس . وقد رأينا الكرملن يأذن للمسلمين بفتح ابواب الجامعتين الدينيتين في طشقند وسمرقند ، لعله انه من طريق هاتين المؤسستين يمكنه اسماع صوته مسلمي آسيا المتشبهين بالسنة ، كما يمكنه اسماع صوته الشيع المنتشرة في ايران والهند من طريق المركز البهائي في اشقنبند ، ولكن نشاط الدعاوة السوفياتية في هذا الحقل لا يعني ان حكومة موسكو تشجع قيام الامة الاسلامية^١ .

فاذا سلمنا بان روسيا الشيوعية تريد ان تفرض على العالم المثالية السوفياتية ، نلاحظ انها تجد ، في جزء من دنيا الاسلام عموماً وفي طوران على الاخص ، محيطاً منقسماً على نفسه ، وانها تستطيع ان تتخذ من هذا الانقسام اداة لفصم عرى الوحدة الاسلامية . ذلك ان الخلاف بين الشيعة والسنة ما برح قائماً . وقد ظهرت في آسيا الى جانب المسلمين المحافظين شيع تنكرت للتقاليد ومضت تنشد مثالية جديدة . ولا ريب في ان روسيا لن تكتفي باستغلال هذه الشيع ، بل ستحاول استخدام الاوساط المحافظة نفسها في زعزعة

١ لا بد من التنويه بان النشاط السوفياتي لم يبدأ الا بعد تدخل اميركا سيا-يا واقتصاديا في الشرق الادنى وايران.

الوحدة الروحية ليسهل عليها فرض سيطرتها السياسية ومثالياتها السوفياتية .

ومن اجل بلوغ الغاية نفسها يضغط الروس والشيوعيون الصينيون ، في هذه الآونة ، على بلاد التبت محاولين اخضاع المراكز الدينية البوذية لسيطرتهم المطلقة .

نحن اذاً امام خطة مدروسة لا سبيل الى انكار اهميتها وخطورة مراميها . ولكن الصين التي تساهم في اللعبة السوفياتية تضم اقلية مسلمة متحلية بالتقوى والشجاعة الادبية . وقد يأتي يوم ثور فيه هذه الاقلية ضد المحاولات الرامية الى استعباد الشعب الصيني واخضاعه لسلطان الآلة . ولا ننسى ان القوى الروحية في الشرق الاقصى عميقة الاغوار . « اطلبوا العلم ولو في الصين » هكذا قال النبي محمد . ومن يدري فقد كانت الانتفاضة الصينية في وجه المثالية السوفياتية بداية الحدث الذي جاء ذكره على لسان الرسول العربي . ومهما يكن من امر ، فآسيا الوسطى والهند هما ، في الظروف الراهنة ، مهد حركات فكرية يخشى ان تطفئ على الاسلام المستقيم الرأي إما بنشرها الدعوة الى الاخذ بمفهوم الدين الكوفي او الشامل وذلك بدمج الاديان المنزلة بعضها ببعض ، او بتبنيها المفهوم السوفياتي للمجتمع ، فتغفل شأن الفرد وتكل الى الآلة مهمة السير بالانسان على الطريق المؤدي الى السعادة .

ويبدو الوضع في شبه الجزيرة العربية وسوريا وافريقيا غيره في آسيا الوسطى والهند . ففي هذه المناطق لم يظهر سوى المصلحين والمهدين الراغبين في العود بالاسلام الى صفائه البدائي . واذا سلمنا جدلاً بان الاقطار الطورانية والحيز الاكبر من ايران تنجح الى

الاخذ بمثاليات لا تتفق والايان الصحيح ، فحوض البحر المتوسط
 يحافظ على هذا الايمان الصحيح حتى في سعيه الى التوفيق بين
 الدين وبين الثقافة العلمية والتكنيكية . وقد رأينا الازهر يشجب
 الشيوعية ، ورأينا تركيا تنشُد مساعدة الولايات المتحدة الاميركية
 وتنضم الى ميثاق الاطلنطيك لانها تخشى بطش جارتها روسيا السوفياتية .
 ان آسيا اليوم نفي فوران ، واقرب شاهد على ذلك الحرب
 الكورية . ومن الغليان الذي يهيج الاسيويين يمكن ان يتولد
 انقلاب شديد الخطورة بالنسبة الى اوروبا وافريقيا معاً . ولئن
 يكن الاسلام واحداً من حيث جوهر العقيدة ، فهو في حوض
 المتوسط عرضة للخطر الذي يهدد النصرانية بفضل النزعات الاسيوية ،
 ولا نستثني نزعات المسلمين الطورانيين . فتفوق العنصر العربي واحصاؤ
 المحلية للشعوب الاسلامية في المتوسط يمكن ان تزول اذا ساد
 المفهوم السوفياتي - الاسيوي للدولة ومسح الانسان الذي يريده
 السوفيات ملكاً للدولة مخلوقاً آلياً من جراء توحيد عناصر الانتاج .
 ولا جدال في ان الحضارة الغربية ذات الاسس المسيحية المتدوقة
 للجمال منذ عهد الاغريق الاول ، المتشعبة باحترام الشرائع تمثيلاً مع
 روما ايام كانت امبراطورية ، المحبة للانسان عملاً بالتعاليم المسيحية ،
 لا جدال في ان هذه الحضارة تلتقي والحضارة العربية ، فضلاً عن
 التربية الاسلامية ، على صعيد المبادئ الاساسية . وقد عبر عن هذا
 الشيخ بن باديس في مؤتمر العلماء الذي التأم في قسنطينة (الجزائر)
 سنة ١٩٣٦ عندما قال : « ينبغي لنا ان نبعث في مسلمي الجزائر
 العقائد الدينية الاولى القائمة على الحقيقة والعلم ، واملنا وطيد بانهم
 مترصلون الى تمييز الدين الحقيقي من المعتقدات الباطلة ، ومستلمون

في كل ما يفعلون تعاليم الاسلام ومبادئ المساواة والاخوة والتسامح والمساعدة المتبادلة ومحبة القريب . »

ولا شك في ان منهج الشيخ بن باديس يوجب به ويتبناه كل من يتحلى بالارادة الحسنة ، ويرغب رغبة صادقة في ان يرى الاسلام والنصرانية متعاونين على اساس التفهم والاحترام المتبادلين ، ويجرّص على قيام توازن منسجم بين الحاجة والتكنيك من شأنه تحسين مستوى البشرية دون ان يستعبد بها ، واحترام القيم الروحية والانسانية . ولا شك كذلك في ان هذا التفهم المتبادل يفرض نفسه اليوم حيال الخطر المشترك . ولا ننسى ان الديانة اليهودية ، التي تقاوم ضدها الشعور العدائي بعد قيام دولة اسرائيل ، مهددة هي الاخرى ، وانه ينبغي لها ان تحتل مكانها في الجبهة المشتركة . بعنوان « النصرانية والاسلام » يؤكد اميل درمنجاييم في كتابه « حياة محمد » ان الهوة التي تفصل بين المسيحيين والمسلمين لا وجود لها ، في الواقع ، بين الاسلام والنصرانية ، فهي وليدة سوء التفاهم . فمن الاحاديث النبوية : « من تعدى على ذمي فانا خصمه يوم القيامة » .

ويزعم درمنجاييم ان شارحي القرآن ، بدلاً من ان يبرزوا وجوه الشبه بين الديانتين المنزلتين ، اجتهدوا في انكار وجودها او تجاهلوا . ويعتقد فرنسيس دي ميوماندر الذي علّق على كتاب « حياة محمد » في مجلة « الاخبار الادبية » *Les Nouvelles Littéraires* ان الشعوب

١ اميل درمنجاييم : « حياة محمد » ، طبع في الجزائر وتوت نشره دار « شارلو » .

في إيماننا تبدو مقنعة بان الايمان المشترك بالله الواحد هو من عوامل التقارب وليس عاملاً من عوامل التباعد والتباعد . يضاف الى هذا ان الاسلام يعترف لموسى والمسيح بصفة النبوة . ويقول المسلمون ان الوحي الذي هبط على النبي العربي قد انزل ديناً سماوياً افضل . وفي هذه الحالة لا يمكن ان يؤدي الاسلام ، في جوهره ، الى مقت الموسوية ولا المسيحية . اما الهوة التي حفرها في الماضي سوء التفاهم بين اتباع الديانات الثلاث فيمكن ردمها اليوم بالتفهم المتبادل .

ان الكتلة الاسلامية التي تضم نحواً من ثلاثئة مليون لا يجوز اغفال شأنها في ظروف العالم الراهنة . ولا مشاحة في ان الدين الاسلامي من الاحداث التاريخية العظمى التي كان ولا يزال لها اثرها البارز في توجيه البشر . وليس هنا مجال المقارنة بين الاسلام وباقي الاديان . فما يهمنا في هذا الباب هو ان تقرر ان هذا الدين المنزل يمثل « فكرة - دافعة » تمت وثبتت ، وانه قيمة معنوية ذات شأن ، لان مئات الملايين من البشر الخاضعين لشرائعه قد اتخذوا منه مثالية لهم . فالامل كبير ، والحالة هذه ، ان تدرك الشعوب الاسلامية انها تستطيع العيش بسلام مع الذين يقولون بمثالية تختلف عن مثاليتهما ، دينياً وروحياً ، ولكنهم متشبعون بالرغبة الصادقة في العمل لما فيه مصلحة البشر كافة .

لا يجوز بعد اليوم ان يعتبر المسلمون الحضارة الغربية قائمة على اساس محض مسيحي . فالخطر الاسيوي يجب ان يفتح عيون الجميع على ان للحضارة الغربية والتربية الاسلامية ، من حيث الجوهر ، اهداف الحضارة الغربية ومصالحها ، وذلك على اختلاف نقطتي انطلاق

الحضارتين واختلاف وسائلهما . فالتقاؤهما وتعاونهما لا يمكن ان ينجح
عنهما غير افضل النتائج .
ينبغي للاسلام ، اذاً ، في منتصف القرن العشرين ، ان يتخذ
موقفاً صريحاً : ان تطوره يجتاز لحظة بسلوكولوجية دقيقة .

نشوء الدول الاسلامية المعاصرة

من فكرة الامة الاسلامية الى فكرة الوطن

تقدم معنا ان الحضارة العربية ، التي انتشرت بفضل الفتح الاسلامي ، لا يمكن ان تندمج بالحضارة الغربية ، ولكن المسلمين مضطرون ، حتى في الوسط الاسلامي البحت ، لقبول الثقافة العلمية العصرية واستخدامها في تحقيق النمو المادي لمجموعاتهم العنصرية .

اجل ، اضطر المسلمون ، مع استمرارهم في الحفاظ على جوهر الدين ومبادئه الاساسية ، الى التسليم بتداخل خارجي بين تربيتهم الخصوصية والحضارة الاوروبية ، هذه الحضارة التي اقتبس منها بعض المسلمين المتصفين بالجرأة والاقدام تدابير سياسية من شأنها تعديل الهيكل التقليدي للحكومات الاسلامية .

تجلى هذا التطور عملياً في مسألة الامامة التي شغلت في الماضي العالم الاسلامي .

معلوم ان النبي لم يعن بتنظيم مسألة الخلافة . ويغلب على الظن انه ما فكر قط بتأسيس بيت مالك . ومهما يكن من امر فالقرآن خلو من اية اشارة الى هذه المسألة . وبعد النبي ظهرت النظرية القائلة ان شؤون المسلمين يجب ان يتعهدها خليفة او امام فرد يسميه الخليفة السابق في حياته ، او تختاره بعد موت سلفه جماعة المؤمنين . وقضت النظرية نفسها بان يكون الامام قرشياً ومن سلالة النبي ، وان يمارس السلطة الروحية والسلطان الزمني . وقد رأينا الخليفة

او الملك ، فيما بعد ، يعهد بالسلطة الروحية الى شيخ الاسلام . وبعد زوال الخلافة (٣ آذار ١٩٢٤) حل محل شيخ الاسلام عملياً في كل قطر اسلامي « مجلس العلماء » الذي يلتزم كلما دعت الحاجة الى التثامه .

كان الخليفة يحمل لقب « امير المؤمنين » ، وكانت صلاة الجمعة تقام باسمه . وقد اتفق احياناً ان تخطى العلماء الذين يعود اليهم امر اختيار الخليفة الجديد القاعدة المتبعة ، فرفضوا تسمية احد ابناء الخليفة السابق ليختاروا الاصلح من اشقائه او ابنائهم او ابناء عمومته الخ ...

وقد اثارت الخلافة ، بادىء ذي بدء ، منازعات شديدة . بيد ان الخلفاء الثلاثة الاول تم اختيارهم دون كبير عناء ، وكانت خلافة علي بن ابي طالب وما رافقها من مشادات ومعارك ، وتسلم بني امية زمام الامور من بواعث الشقاق الذي قضى على وحدة الصفوف ، فكان المتيشعون لعلي (الشيعة) ، وكان الخوارج . وهو انقسام لا يزال مشاهداً في ايامنا .

استولى الاتراك على الخلافة في العام ١٥١٦ وانتزعوا من العرب دفعة القيادة ، قيادة العالم الاسلامي ، بعد ان استلوا العرش من تحت اسيادهم العباسيين . ولا ريب في ان مسألة الامامة كانت في طليعة المسائل التي شغلت الرأي العام الاسلامي بعد انتقال السلطة بشقيها الى الاتراك . ويمكن القول ان هذه المسألة لا تزال قائمة ، فلمسلمون يرغبون في احياء الخلافة ، ولكن المؤتمرات التي عقدت لهذا الغرض لم توفق الى اختيار الخليفة المنشود .

لقد عجزت الامامة في الماضي عن تحقيق وحدة العالم الاسلامي

على الصعيد السياسي . اما اليوم ففكرة « الامة الاسلامية » قد تركت مكانها لطراز جديد من الحكم حركت القوميات التي نشأت ونمت في نطاقه المطامح الشخصية لدى ملوك يطمع كل منهم الى الامامة .

يمكن ان تثار مسألة الامامة في ايامنا على الصعيد الديني البحت ، ولكن من المشكوك فيه ان يفضي حلها الى توحيد الاسلام زمنياً . فالتنافس بين العرب والأتراك قد ساهم الى حد كبير في نمو القوميات العربية ، وحافظ العرب ، عندما كانوا خاضعين للسيطرة العثمانية ، على ايمانهم بتفوق عنصرهم ، مما جعل السلاطين في استمبول شديدي الحذر من العرب سواء من كان منهم في سوريا او الحجاز او نجد او اليمن . وقد عمد السلطان عبد الحميد الثاني^١ ، بعد ان احتل بعض الدول المسيحية تركيا الاوروبية والقوقاز مجدداً ، الى توطين المسلمين الذين هجروا الولايات المحتلة في تركيا الاسيوية حيث انتشروا جوالي زراعية - عسكرية على طول مناطق الحدود المتاخمة للبلاد العربية او في النقاط الاستراتيجية الواقعة في قلب الاقطار العربية . كان المهاجرون من ابناء الروماني وبلغاريا وبلاد الكرج (جيورجيا) والشركس الخ ... وقد النوا نوعاً من التكنات او الخافر العثمانية المتحفزة دائماً للتدخل في حال لجؤ العرب الى العصيان او الثورة . وبعض هذه الجوالي لا يزال

١ كان عبد الحميد الثاني سياسياً حاذقاً واحد دعاة الوحدة الطورانية . ولو تم اتحاد الحركتين: حركة الوحدة العربية وحركة الوحدة الطورانية، لتحققت وحدة الاسلام، ولكن الحركة الثانية قامت بخاربة الاولى، فضعفت كلتاهما وازداد الاسلام انقساماً .

حيث وطنه العثمانيون ، ويتمتع برعوية الدولة التي هبطها مهاجراً ليخدم فيها اغراض العثمانيين^١ .

اوردنا هذا الشاهد للتدليل على مبلغ ثقة استمبول بولاء العرب لها . وقد تابع هؤلاء نشاطهم في الحقل السياسي بصفة كونهم رعايا الدولة العثمانية ، وكان لنوابهم جولات موفقة في استمبول . وعلى اثر نشوب الحرب العالمية الاولى بدا العداء سافراً بين العرب والاتراك . وقد حاولت استمبول منذ اللحظة الاولى قطع الطريق على دعاة الوحدة العربية والدعاوات الانكليزية والفرنسية ، فاعلن السلطان الخليفة الجهاد (الحرب المقدسة) ، والجهاد هو احد اركان الدين الاسلامي ، ولكن الوحدات المسلحة في الجيشين البريطاني والفرنسي لم تتأثر بهذه البادرة . وفي الوقت نفسه عرفت الدبلوماسية البريطانية كيف تستغل نقمة العرب ، فعملت بواسطة فيليبي في نجد ولورانس في الحجاز على اثارة البلاد العربية ضد الامبراطورية العثمانية . واوفدت فرنسا الى الحجاز بعثة الكولونيل « بريون » التي انتقلت من ثم الى ارمينيا فكيليكيا^١ . وقد بادر شريف مكة الحسين بن علي الى حمل راية الثورة ، وعهد الى نجليه فيصل وعلي بقيادة الجيش العربي . وعجز الاتراك عن سحق الثورة ، ثم اضطروا للتراجع امام فيالق الاميرين العربيين اللذين بلغا دمشق على رأس قواتهما حيث تم الاتصال

١ اقترح عبد الحميد على هرزل مؤسس الحركة الصهيونية تنازل الدولة العثمانية لليهود عن فلسطين في مقابل مبلغ من المال ، ولكن الصهيونيين لم يتمكنوا من جمع المبلغ المطلوب .

٢ فلائيل هم الفرنسيون الذين قدروا ما قامت به هذه البعثة ، وما حققته من قبل ، في دبا الاسلام ، بمئات بوتان ولوسكاريس وسيبستاني في عهد نابوليون .

بينها وبين الفرنسيين والبريطانيين القادمين من مصر .
 القى الالمان والاتراك السلاح ، فوضع العراق والاردن وفلسطين
 تحت الانتداب البريطاني ، وسوريا ولبنان تحت الانتداب الفرنسي .
 اما كيليكييا فقد اعادتها فرنسا الى تركيا الجديدة - تركيا مصطفى
 كمال - في العام ١٩٢١ . وفي شبه الجزيرة العربية حقق الوهابيون
 الوحدة بين الحجاز ونجد . اما اليمن فقد انطوى على نفسه مؤثراً
 العزلة .

انصرفت تركيا ، خلال الفترة الفاصلة بين الحربين العالميتين ،
 الى تنظيم نفسها كدولة عصرية ذات نظام جمهوري . اما البلدان
 الواقعة تحت الانتداب فقد قضت الفترة نفسها باحثه عن توازنها ، في
 جو لم يخل من الصدام . وقد وعت شخصيتها خلال ذلك ، وبرزت
 الطوايع الاقليمية كنتيجة منطقية لعدم تحقيق الوحدة العربية .
 ويمكن القول ان الانتدابات قد ساهمت ، الى حد ما ، في انشاء
 الدول العربية بشكلها الراهن . ومنذ ١٩٤٥ توصلت القوميات
 العربية الى حمل الدول في الشرق والغرب على الاعتراف باستقلال
 دول المشرق ، هذا الاستقلال الذي ثبت اركانه قيام دولة اسرائيل
 دون ان يترتب على الشعور باحطار المشترك قيام تحالف فعلي بين
 الدول ذات العلاقة .

لقد ترتب ، اذاً ، على زوال الامبراطورية العثمانية ، نشوء دول
 جديدة هي - الى جانب مصر التي كانت السابقة في مضمار التحرر
 من النير العثماني - : العراق وسوريا ولبنان والاردن . اما فلسطين
 فقد جزئت بضم رقعة منها الى الاردن ، وانشاء اسرائيل في الرقعة
 الاخرى . يضاف الى هذه الدول العربية في الشرق الادنى العربية

السعودية واليمن . وترتب على زوال الامبراطورية العثمانية في الوقت نفسه نشوء الجمهورية التركية ، دون ان يؤدي هذا التحول الخطير الى زوال ما بين الاتراك والعرب من عوامل التنافس والنفور مما يقف حجب عثرة في طريق بعث « الامة الاسلامية » .

كان ما حصل بعد الحرب العالمية الاولى اجهازاً على الامبراطورية العثمانية . فقد اتاح ضعفها قبل الحرب للقطر المصري ان يتحرر من نير سيطرتها ليقع تحت نير الحماية البريطانية . وتحررت كذلك الولايات العثمانية في افريقيا الشمالية ، مع العلم ان خضوعها للسلطنة كان اسمياً . وخضعت ليبيا للسيطرة الايطالية ، وتونس والجزائر للسيطرة الفرنسية ، في حين ادى التوسع الاوروبي في افريقيا السوداء الى نشوء امبراطوريات جديدة .

اما مراکش فيمكن القول انها ما اعترفت قط بالسيادة العثمانية ، فسلطان مراکش هو وارث خلافة الاندلس . ففي العام ١٣٩ للهجرة (٧٥٨ م) سلم سكان اسبانيا مقاليد امورهم الى عبد الرحمن الداخل واطلقوا يده في تدبير شؤونهم ورعايتها . « وكان عبد الرحمن هذا سبباً في تجزئة الخلافة الاسلامية وجعلها خلافتين : الخلافة الاموية في اسبانيا والخلافة العباسية في بغداد » . وقد وضع السيد « سوردون » دراسة قيمة عن قيام الخلافة الاسبانية — المراكشية المتصلة ، من حيث المنشأ ، بالاسرة العلوية (نسبة الى الامام علي) . ويقول « سوردون » ان وضع اسبانيا الخاص قد

اضطر ائمة الشرع الاسلامي الى سن شرع جديد اتاح للمذهب المالكي مجازاة المجتمع الاندلسي في تقدمه المطرد، وايجاد حلول فقهية لمواجهة الحالات الطارئة . وهكذا نشأ في المغرب الاقصى مجتمع ذو طابع نلمسه اليوم في الدولة الشريفة المراكشية . وقد وحدت الحماية الفرنسية البلاد بضمها الاقليم العاصي الى الاقليم الخاضع للسلطان ، ولكن مراكش الموحدة لم تفقد طابعها الخاص في نظر الدول العربية في الشرق الادنى .

تبسط اسبانيا سيطرتها على جزء من مراكش الحالية ، ولكن سلطات الخلافة التي يمارسها سلطان مراكش الاسبانية مقصورة على حل المسائل المتعلقة بينه وبين سلطات الاحتلال . وفي وسع السلطان المراكشي في المنطقة الخاضعة للسيطرة الفرنسية الزعم انه خليفه الشرعي الوحيد في العالم الاسلامي المعاصر ، وان يكن المسلمون خارج سلطنته لا يعترفون له بهذه الصفة .



الى الشرق من الامبراطورية العثمانية تقع بلاد فارس (ايران) وما كان العرب يسمونه طوران . وقد وقفت اولاهما دائماً في وجه سلاطين بني عثمان وحرصت على فرديتها كدولة تعيش على هامش الحركة الاسلامية السنية .

احتل العرب ايران العام ٦٣٧ ، فانضمت الى الشيعة ، واعتمدت المذهب الشيعي ديناً للدولة . وفي كنف هذه التحالف او هذا الخروج على ما كان يشبه الاجماع ، حافظت بلاد فارس على استقلالها السياسي والروحي والفكري . ولا يختلف وضع الافغان عن وضع جارتها ، ولكنها اشد استمساكاً من بلاد فارس بالاسلام

السني . وقد احرزت استقلالها في ٨ آب ١٩١٩ . الا ان جرار الروس يضطر الافغان وايران (بلاد فارس) وتركيا الى اعتماد نهج دولي معين سنعود اليه فيما بعد .

في الهند انتشر الاسلام على نطاق ضيق نسبياً بفضل المسلمين الذين هبطوها من بلاد فارس براً وبطريق البحر من البلاد العربية . ثم اجتاحتها جيوش تيمورلنك الذي انطلق من سمرقند يخضع الامصار باسم الاسلام . وقد بلغ في زحفه نهر « الغانج » وانشأ امبراطورية « المغول العظام » التي قوض دعائها الاحتلال البريطاني . واخيراً اثار ظهور هندستان وباكتان والولايات المتحدة الاندونيسية (وهي البلدان التي تضم عناصر اسلامية نشيطة ووافرة العدد) مسائل جديدة بعضها شائك . ولا ننسى ان في الفيليبين اقلية مسلمة (الموروس) ، وان في الصين واليابان نواة اسلامية لها شأنها . ولقد بقيت البلاد العربية وتركيا قروناً قلب العالم الاسلامي ، وانتشر في الغرب مسلمو افريقيا ، وفي الشرق مسلمو ايران وطوران والشرق الاقصى ، واطهر هؤلاء نزعات معقدة ابقتهم خارج اللحمة الروحية التي تشد مسلمي الغرب بعضهم الى بعض .

وكانت اوروبا ، منذ قرون ، قد بلغت من التقدم مبلغاً اتاح لامم الغرب ان تفرض سيطرتها السياسية والاقتصادية على بلدان آسيا وافريقيا ، ولاسيما البلدان الاسلامية . بدأ الاسلام برفض محاولات التفاهم والتوفيق على الصعيد الفلسفي ، مؤثراً الانطواء على نفسه . اما اليوم فمع بقاء المسلم مقتنعاً بان لا خلاص خارج الاسلام ، نراه جاداً في السعي الى اماطة اللثام عن سر تفوق اوروبا واميركا المادي ، مع العلم ان الثقافة الغربية هي في نظره واسطة وليست غاية .

في هذا الحقل كان تطور المسلمين عميقاً ، وقد تجلّى في بعض إقطارهم بإنشاء الدولة العلمانية . بيد ان هذه الخطوة الجريئة حققتها دائماً ارادة زعيم قادر ، ولم تكن قط وليدة الارادة الشعبية .

سجل العام ١٩٥٠ نشوء قوميات ذات طابع محلي عصري في اقطار اسلامية منها المستقل ، ومنها شبه المستقل ، ومنها الخاضع للسيطرة الاجنبية . وتركت فكرة « الامة الاسلامية » مكانها - على الصعيد السياسي - لفكرة الوطن ، بعد ان كان زوال الخلافة قد فسخ للطوائع المحلية الخاصة في مجال الظهور على الصعيد الديني . ولا جدال في ان انتشار الفكرة الجديدة يوازي انقلاباً حقيقياً ، بل ثورة فعلية ان هي لم تقصر على فكرة الدولة الدينية ، فقد افضت الى اضعافها لمصلحة الدولة العلمانية ، حتى في حال بقاء الاسلام ديناً رسمياً لهذه الدولة .

وكشف العام ١٩٥٠ عن ناحية جديدة للمسألة الاسلامية . فقد بقيت مصر والشرق الادنى ، حتى الامس ، محور النمو الفكري الاسلامي . اما اليوم فيبدو ان آسيا مدعوة الى تعديل هذا الوضع . ذلك بان فكرة « آسيا الكبرى » التي طلعت بها اليابات قبل الحرب العالمية الاولى قد انتشرت بسرعة في العالم الاسيوي ، وفي الوقت نفسه ترتب على الفتوحات الغربية في الشرق الاقصى نشوء قوى جديدة قادرة على تهديد اوروبا . فهل ينساق الاسلام الاسيوي مع التيار ويعمل ، في نطاق البلدان والانظمة التي يعيش في كنفها ، على اجتذاب مسلمي الغرب نحوه ، ام يبقى مخلصاً لفكرة « الامة الاسلامية » ؟ واذا صح ان العنصر العربي فقد معالم التفوق الذي كان له في العالم الاسلامي ، وان نفوذ البلدان التي تأثرت بالمثالية

الطورانية آخذ بالنمو ، فهل نشهد قريباً انتقال محور النشاط الاسلامي الى القارة الاسيوية ؟ وهل يطغى ما تتمتع به سمرقند وطشقند من نفوذ ديني على نفوذ دمشق والقاهرة ؟

في الباكستان يدعو السيد شاودوري (١) الى وحدة اسلامية من طراز عصري . فهو يقترح ، رغبة منه في توحيد كلمة مسلمي الشرق ، انشاء اتحاد يطلق عليه اسم « اسلامستان » يتجلى في نطاقه تعاقد المسلمين . هذه الفكرة ومثيلاتها تبدو في الظروف الحالية غير قابلة التحقيق ، ولكنها تدل على خروج شعوب آسيا من سباتها العميق والطويل ، وعلى تحفزها للتوسع .

ولا يسع الباحث ، وهو يعرض لهذه الناحية الجديدة في المسألة الاسلامية (اي احتمال انتقال محور النشاط الفكري من مصر والشرق الادنى الى آسيا) ، ان يسقط من حسابه تأثير الولايات المتحدة الاميركية وروسيا السوفياتية اللتين تتسابقان الى خطب ود الاسلام . تقول في هذا مجلة افريقيا وآسيا ٢ :

« في جملة الوقائع الجسيمة التي يحفل بها تاريخ عصرنا ما نشهده من انهيار الامبراطوريات التي انشأتها اوروبا الغربية في آسيا وافريقيا . وعلى انقراض هذه الامبراطوريات تحاول الاقوام ان تنشئ صرح استقلالها الذاتي لتستحيل عاجلاً او آجلاً امماً عصرية . » وهذا التطور ليس كله من صنع الامم الاوروبية ، فقد

١ لعل الكاتب يقصد السيد خليف الزمان . اما لفظة شودري فتعابها عندنا لفظة افندي او بك . - المغرب .

٢ العدد العاشر (١٩٥٠) بعنوان : « القومية قوة بناءة » .

فرضته على العالم ، عملياً ، مثالية " سياسية نشأت ما وراء المحيط الاطلسي ، وأستوحيت منها مبادئ ويلسن الاربعة عشر وميثاق المحيط الاطلسي الذي وضعه الرئيس روزفلت .

« استوحى الاميركيون مثاليته من اختباراتهم الخاصة ، وكانت نقطة الانطلاق نجاح تجربتهم الاتحادية . وقد سلطوا اضواء الماضي على المستقبل فقام في ذهنهم ان ما حدث في اميركا يصلح ان يكون اساساً لتطور آسيا وافريقيا . ألم تحمل اوروبا منذ قرنين الى امبراطورياتها فكرة الدولة العصرية ؟ وقد قامت مذ ذاك دول عصرية في البلدان التي استطاعت الحفاظ على استقلالها كاليابان وايران والافغان واليمن وتركيا ، ولم يبق - في نظر الاميركيين الذين يريدون فرض مثاليتهم على العالم القديم - الا مساعدة البلدان الافريقية والاسيوية غير المستقلة على التطور بسرعة . ومن هنا كان عداء الاميركيين للنزعة الاستعمارية واعتمادهم نهجاً لا يتفق والمصالح البريطانية والفرنسية ما وراء البحار .

« ولكن المشروع الاميركي يواجه عقبة ذات بال . ففي آسيا امبراطورية تقاوم بنجاح العمل التخريبي الذي يرمي ، منذ عشر سنين ، الى القضاء على النظام الاستعماري . وهذه الامبراطورية (الامبراطورية الروسية الآخذة بالتوسع) تهدد كيانات الدول المستضعفة المجاورة لها . ألسنا هنا حيال مسألة خطيرة لم تكن قائمة في العام ١٩٤٤ ، مسألة تجاوز امبراطورية متعطشة الى الفتح والتوسع وامم فتية وضعيفة لم تعرف اوروبا التي انهكتها الحروب ، او لم تستطع ، او لم تشأ حتى اليوم ، ان تأخذ بيدها في طريق النضج والتحرر من الوصاية ؟ من اين للدول العصرية العتيقة في

افريقيا وآسيا الطاقاة على مقاومة اتحاد الجمهوريات الاشتراكية السوفياتية المجاور لها او الذي تفصل بينه وبينها مسافات شاسعة ؟ لكي يتسنى لهذه الدول الصمود في وجه محاولات الغزو والدعاوات الشيوعية ، يجب ان يكون للشعور القومي الذي يحرّكها القدرة الكافية على الخلق والبناء . »

يتضح مما تقدم ان الخطر الذي يهدد الامبراطوريتين الفرنسية والبريطانية مصدره اميركا والاتحاد السوفياتي على السواء . فما عساه يكون موقف المسلمين ، الذين تأهل بفريق منهم بمتلكات ما وراء البحار ، من هذه التيارات المتعارضة ؟ بما لا ريب فيه ان المثالية الاميركية والصوفية الروسية يمكنها ان تخدما المطامح والاماني الاسلامية ولكن لوقت محدود ، وان الولايات المتحدة الاميركية تستطيع ان تقدم الى المسلمين العون الاقتصادي والمادي الذي يحتاجون اليه . بيد ان هذا العون لن يكون دون مقابل ، فقد تتقاضى الولايات المتحدة ثمناً له فرض سيطرتها الاقتصادية وما يتبع هذه السيطرة من فرض نوع من الوصاية السياسية لا تهضمه عقلية المسلم . ويجوز القول كذلك ان الصوفية الروسية يمكنها ان تلتقي والصوفية الاسلامية على اكثر من صعيد . فالنظرية الائمة القائلة بتحرير الشعوب تجذب تربة صالحة في البيئة الاسلامية ، وتصلح بالتالي ستاراً لاختفاء مرامي الدعاوات الشيوعية التي نشطت في دنيا الاسلام منذ ١٩٢٠ . وقد جعل النضال ضد الاستعمار من هذه الدعاوات حليفاً للتعصب الديني والشعور القومي المتطرف . إلا اننا نلاحظ ان المبادئ الشيوعية لم تستهوي السواد الاسلامي بالرغم من التوافق الظاهر بين الاقتصاد الاجتماعي كما تفهمه الشيوعية والنظام

الزراعي الذي يسود بعض المناطق الاسلامية . ذلك بان البيئة الاسلامية ، التي لا يزال عدد العمال فيها ضئيلاً نسبياً ، تشجع بوجهها عن الماركسية لانها ، على حد قول بلتيغران : « تجعل سعادة الانسان على الارض رهناً بتنظيم خيرات الدنيا تنظيمياً يقوم على اساس توزيع الثروات ، وبتحرير البشر من قيود الدين . فغاية الشيوعية هي تنظيم احوال البشر في دنياهم ، اما غاية الاسلام فهي التسليم لمشيئة الله . »

الاسلام ، في الواقع ، ظاهرة اجتماعية ذات طابع ديني بحت . وروحية الاسلام لا بد مصطدمة ، عاجلاً او آجلاً ، بالمفاهيم التي لا تعترف بوجود الفرد ، وتقدم الدولة على الدين ، وتخفف من شأن البشر الى الدرجة القصوى ، حتى في حال استنادها موقفاً الى الصوفية الروسية بغية تحقيق مطامعها العاجلة . اجل ، ليس من هذا التصادم بد ، الا اذا طرأ على الاسلام تحول اساسي ينزع به الى التنكر لتقاليده وشرائعه ، وهذا امر بعيد الاحتمال ...

يقع الاسلام بين اوروبا - افريقيا واوروبا - آسيا ، اي في وسط حلقة النزاع الذي تريد الولايات المتحدة الاميركية ان تجرّ اليه آسيا الشرقية ، معتمدة على اوروبا - افريقيا في محاولتها ابقاء اوروبا - آسيا في نطاق يطمح جنكيزخانات هذا العصر الى الخروج بها منه . فاذا قبض الاسلام الاسيوي ، المنبثق جزئياً من الفتح المغولي ، على الدفة وتولى قيادة الحركة الاسلامية الى جانب تبنيته النظرية القائلة بوجود اخضاع العالم لسيطرة اوروبا - آسيا بزعامة روسيا ، فما يكون مآل الاسلام في حوض المتوسط وافريقيا والشرق الادنى ؟ أيمكنه الحفاظ على استقامته معتقداته وعلى تقاليده

المقدسة ؟ يعود الى المسلمين ان يفترضوا مواجهة هذا الاحتمال الخطير ويجيبوا عن هذا السؤال .

بما لا ريب فيه ان القوميات العربية الاصل عاجزة في الوقت الحاضر عن صون كياناتها . وبما لا ريب فيه كذلك ان النجاح الوحيد الذي سجلته الحركة القومية في آسيا هو قيام الجمهورية التركية (لا ننسى ان الاتراك العثمانيين فروا من وجه الاتراك المغول ولجأوا الى آسيا الصغرى) ، وان مصطفى كمال جعل من تركيا امة عصرية ، قوية ، لم تحجم عن فصل الهيكل السياسي للدولة عن الشرع الديني . بيد ان تركيا الحديثة هذه تحمل في ذاتها بذور الانقسام ، وقد افقدها تطورها زعامة العالم الاسلامي . وتشكو ايران والافغان واليمن والعربية السعودية ضعفاً متفاوت الدرجات ، وهي اقرب الى شكل الدولة الشرقية القديم منها الى شكل الامة الديمقراطية بمفهومها الحديث . اما الدول العربية في المشرق فقد حالت الخلافات الداخلية ولا تزال تحول دون قيام لحظة حقيقية فيما بينها بالرغم من محاولاتها المتكررة في سبيل التفاهم والاتحاد .

يخشى اذاً ، والحالة ما ذكرنا ، ان يبدو العالم الاسلامي ، في هذه اللحظات الحاسمة من التاريخ ، وكأنه بيئة يحتمل ان تجدد فيها دسائس الدول الاجنبية الطامحة الى السيطرة على العالم مناخاً ملائماً لها . ولكن اذا جاز اعتبار الاسلام ، حالياً ، ضعيفاً كقوة زمنية ، فلا يغربن عن البال انه قوي بايمانه ، هذا الايمان الذي يحفز للعمل مئات الملايين من المؤمنين .

ان مستقبل آسيا وافريقيا هو اليوم موضع اهتمام خاص في

الولايات المتحدة وروسيا ، وفي أوروبا الغربية . ويتتبع الذين لهم خبرتهم في شؤون القارتين ، بفضول ولهفة ، نتيجة الصراع القائم بين الجبارين ، لان المسألة ليست مسألة تنافس بين عقيدتين : انها مسألة حياة او موت لمليار من البشر يجدون انفسهم في بحران من الفوضى والقلق الذين اثارهما التحول المفاجيء الذي طرأ على العالم القديم . ان الاكتفاء بالمراقبة بحجة ان الحوادث تجاوزتنا من شأنه ان يؤدي بنا الى الجمود . فقد مرت بالعالم ظروف كالتي يجتازها الآن ، ورأينا الامة اللاتينية تأخذ بمفهوم جديد للسلطة عندما احلّت فكرة الدولة محل فكرة الزعيم الاقطاعي . ومن فكرة الدولة انبثقت فيما بعد فكرة الامبراطورية . واليوم يعود العالم الى الاخذ بفكرة الوطن الخاص بكل عنصر ذي طوابع مميزة في حقول الدين والاجتماع والاقتصاد ، وله كذلك واقعه الجغرافي . وقبل ان يتم للعناصر تحقيق مطامحها الخاصة ظهر تياران كبيران ينزعان الى جرة الاوطان الصغيرة الى دائرة منظمات امية تعمل على فرض سيطرة احدهما . وهذان التياران هما المثالية الاميركية والصوفية الروسية . فهل يكون زوال الاوطان الصغيرة في مصلحة البشر ام وبالأعلى عليهم ؟ لسنا نملك الاجابة عن هذا السؤال ، ولكننا مؤمنون بالاوطان تربة صالحة لنمو القيم الروحية وصورها . فاذا كانت هذه الاوطان المنبثقة من الحركات القومية ضئيلة بوجودها ، فينبغي لها ان تواجه الخطر المحدق بها صفاء واحداً ، تحدوها الرغبة المشتركة في الدفاع عن مثلها العليا .

ويلوح لنا ان القوة المادية قادرة على سحق كل ما يعترض سبيلها . ولكن لا ننسى ان الفكرة اقوى من الموت . فمتى وجد

الايان - على شكل مثالية او عقيدة دينية - لا تعدم الفكرة وسيلة للخروج مجدداً من بين الانقاض . لقد مرت بفرنسا ، في تاريخها الطويل ، ظروف قاسية ، ولكنها عرفت كيف تقهر الموت بالفكرة ، ومن اجل الفكرة او المثالية . ولا ريب في انها ستتغلب على مصاعب الساعة يوم تتوصل الى تحقيق التوازن بين المثل العليا وجنوح العالم الى تحكيم الآلة بالانسان ، وذلك بفضل اتحاد كلمة العناصر التي تؤلفها . وسيكون هذا شأن الاسلام ، كقوة فكرية ومعنوية وروحية : انه يحاول ان يتبين طريقه بين انقاض القوميات الآخذة بالانهار ، وقد يميل تارة الى هذا المعسكر وطوراً الى ذلك . وقد يطول تردده وتتفاقم حيرته ، ولكن لا يحيد له في النهاية عن اتخاذ قرار حاسم ، فيختط نهجه بنفسه ولا يحيد عنه بفضل اخلاصه لمثله .

الاسلام في المسألة الشرقية الجديدة

يواجه العالم اليوم «مسألة شرقية» جديدة تفوق سابقتها أهمية وخطورة من جرّاء تبدل الاوضاع العالمية وقيام هذا الصراع الرهيب بين مثاليتين تطمح كلتاهما الى اخضاع العالم لسيطرتها .

والمسألة الشرقية قديمة العهد، عرفت في عهد الاغريق والرومان والصليبيين، كما عرفت في عهد هرقل وعهد باخوس . بيد ان مسألة استرداد النصارى لتركيا واقتسام تركة «الرجل المريض» لم تشر جدياً الا في العام ١٦٨٣، عندما تحطمت موجة الفتح التركي على اسوار فيانا . وقد ترتب على هزيمة الاتراك، يومئذ، ظهور الحركات القومية في البلقان، ونهوض الشعوب البلقانية لاستخلاص استقلالها . وكان من نتيجة هذه الصليبية الجديدة ان اضطر العثمانيون الى الانكفاء والعود الى آسيا . وانتهى بهم الامر في القرن العشرين الى اضعاف الطابع العلماني على الدولة، فألغيت الخلافة، وصرفت تركيا النظر عن امبراطوريتها الاوروبية لتصير «دولة حديثة ذات مجلس وطني كبير»، وانشأ اتاتورك امة تركية على انقاض «الرجل المريض» .

ومعلوم ان آسيا الصغرى كانت بحكم موقعها ولا تزال جسراً يصل الشرق بالغرب . وقد اوضحت «طرق الآلي والحرير والافاويه» طرقاً للتجارة الحديثة، كما كانت الحال في الماضي، ترافق تبادل السلع

مبادلات في الحقلين الثقافي والمثالي . يضاف الى هذا ان نفط القوقاز والموصل وايران وشبه الجزيرة العربية يجعل من البلقان والمتوسط الشرقي والشرق الادنى قبلة الانظار ، ومركزاً للترانزيت له ، اقتصادياً واستراتيجياً ، شأن زاد في اهميته الدولية تعاضم شأن الطيران . فطبيعي ، اذاً ، ان تعنى بامر هذه المناطق الدولتان الانكلوسكسونية والسوفياتية ، بعد ان عمدت كل منهما الى تطويقها ببلدان تابعة لها ، وان تطمح كلتاهما الى اخضاعها لسيطرتها الاقتصادية والسياسية وفرض مثاليتها عليهما .

ان الشعوب الاسلامية في آسيا الصغرى والبلاد العربية وآسيا الوسطى مدعوة ، والحالة ما ذكرنا ، الى ان تحدد موقفها من المعسكرين على اساس صون استقلالها الطري العود . اما الدول البلقانية فقد اخضعها الكرملن لسيطرته باستثناء يوغوسلافيا التي تزعم الاخلاص للصوفية الشيوعية ، ولكنها ترفض تلقي التعليمات من موسكو . وتطمح اليونان الى الحفاظ على طابعها الفردي معتمدة على المساعدات الاميركية . وقد اختطت يوغوسلافيا لنفسها النهج ذاته . واذا نظرنا الى اوروبا نجدها مجزأة هي الاخرى ، فالخيز الشرقي منها ، بما فيه المانيا الشرقية ، قد ادمج في اوروبا - آسيا ، الخاضعة للنفوذ السوفياتي . ومقابل اوروبا - آسيا يقوم ، منذ التوقيع على ميثاق المحيط الاطلسي ، صرح دولي جديد هو اوروبا - افريقيا ، تسانده اميركا . اما ركائزه فهي الامم الغربية وبقايا الامبراطوريات البريطانية والفرنسية والهولندية والبلجيكية . وفي الوقت الذي يلوح على الحضارة الغربية الهرمة انها واقفة على شفير الهاوية ، وانها ستعجز عن استرداد اعتبارها كقوة فاعلة ببناء ان هي لم تتدارك نفسها وتتغلب

على ضعفها - في هذا الوقت بالذات تتطور الممتلكات التي تؤلف الامبراطوريات الغربية تطوراً سريعاً ، ويطراً عليها تحول اساسي يُسأل عنه ، ولو جزئياً ، عي الفكر الاوروبي الخلاق .

وبين اوروبا - اسيا واوروبا - افريقيا تقف تركيا وايران والدول العربية في الشرق الادنى مشكّلة ، اليوم اكثر من اي وقت آخر ، النقطة التي تتجمع فيها او على مقربة منها القوى المتنازعة ، وتتسلل اليها الافكار الجديدة التي تنشرها هذه القوى .

تعرض هذه الحالة في وقت لا تزال فكرة الوطن طرية في اذهان الشعوب الاسلامية وقبل ان يتاح لهذه الشعوب ان تنظم نفسها .

عقب الحرب العالمية الاولى نشأت في آسيا وافريقيا دول جديدة:

- في ٢٢ تشرين الثاني ١٩٢١ قامت دولة الافغان .

- في ٢٨ شباط ١٩٢٢ اخذت مصر بالنظام الماسكي الدستوري .

- في ٢٨ تشرين الاول ١٩٢٣ اعتمدت تركيا النظام الجمهوري .

- في ١٥ كانون الاول ١٩٢٥ استقلت ايران بزعامة رضا خان .

- في العام ١٩٢٥ شهد العالم العربي مولد المملكة العربية

السعودية .

وجاءت الحرب العالمية الثانية فعزّلت تنظيم هذه الدول .

وعقب هذه الحرب احرزت دول المشرق استقلالها ، وكانت عصبة

الامم قد وضعتها تحت الانتداب على اثر الحرب العالمية الاولى .

أيمكن هذه الدول الطرية العود ان ترسخ قواعدها في الظروف

التي تمرّ بالعالم ؟ من المشكوك فيه ان يتاح لها العمل بحرية ، وقد

تجد نفسها مضطرة للحد من مطامحها ومثالياتها تحت ضغط حاجتها

الماسة الى العون المادي الخارجي ، هذا العون الذي لا سبيل الى الحصول عليه الا من احد العمالقين المتنافسين .

ان المسألة الشرقية المعاصرة يمكن تلخيصها بسؤال هو الآتي :
لمن تكون السيطرة على الشرق الادنى ؟

سنعرض لامكانات كل شعب من الشعوب الاسلامية ذات العلاقة ، مشيرين الى بقاء فرنسا ، مادياً على الاقل ، بمعزل عن الصراع القائم في سبيل السيطرة على آسيا الصغرى ، والى ان لبريطانيا العظمى مصلحة حيوية في الابقاء على نفوذها في الشرق الادنى . اما الولايات المتحدة الاميركية فقد احرزت على حساب انكلترا في المحيط الهندي قواعد متينة .

اما روسيا السوفياتية التي تبنت سياسة القياصرة ، او خطوطها الكبرى على الاقل ، فانها لم تفعل حتى الان اكثر من تهديد الطرق المؤدية الى هذا الشرق حيث سيكون الفصل في مصير العالم ، كما يستدل من القرائن والمقدمات . ولكن ظلها الخفيف يهدد البلدان التي تدفئها الشمس .

والصراع الذي نشهد بين العمالقين ليس مقصوراً على الحقل الاقتصادي ، بل يتعداه الى توجيه البشر روحياً واجتماعياً . وقد ادركت الكنيسة الكاثوليكية ان القيم التي انبثقت منها المسيحية والحضارة الغربية يتهددها خطر داهم ، فبادر الفاتيكان الى تحديد موقفه من التيارات التي تتجاذب العالم ، عندما اعلن البابا بيوس الثاني عشر في مطلع ١٩٥٠ ان الدولة لا يمكنها ان تبتلع الفرد ولا العائلة ، وان الكنيسة اقوى من ان تؤثر فيها المحن ذات الطابع الزمني الموقوت . وقد زعم بعضهم ان الفاتيكان يفكر في نقل وثائقه

الى مكان امين في حال وقوع ايطاليا تحت السيطرة السوفياتية .
ومها يكن من امر فالثابت ان الكنيسة شجبت الشيوعية بمفهومها
السوفياتي .

ان المثالية الاميركية والصوفية الروسية تتجاهلان في كل مكان ،
فعلى البشر ان يختاروا ، لان الدلائل لا تبشر بقرب الوصول الى
حل وسط ، فالروس لا يبدون استعداداً للتساهل ، والشعوب الحرة
لم تدرك بعد ان تعاونها فيما بينها هو السبيل الوحيد الى حماية مصالحها
واستقلالها واقضاء شبح الحرب .

تقف الشعوب الاسلامية ، اذاً ، على مفترق بيسيكولوجي من
تاريخها ، في فترة هي من ادق الفترات . وقد نشأت مطامحها ومثالياتها
في بيئة اسلامية بمقتضى قواعد اساسية مطلقة لا يمكنها التساهل
بشأنها . وها هو الاسلام في الشرق الادنى وآسيا الصغرى يجد
نفسه عرضة لتيارات مصدرها اوروبا - اسيا . ولا ريب في ان
مقدرات الاسلام السياسية والدينية ستتأثر الى حد بعيد بالنهج الذي
تخطه لنفسها تركيا والدول العربية . فهذه البلدان ، بالاضافة الى ايران ،
ستكون اول اهداف المثاليات الاجنبية ، وعلى خطاها سيوقع
مسلمو افريقيا الشمالية خطاهم . وقد المعنا في فصل سابق الى ان
تطور الاسلام تاريخياً وبسيكولوجياً جعل من الشعوب الاسلامية
مجموعتين : مجموعة اسيوية واخرى متوسطة . وقد كانت هذه بمظاهرها
الخارجية على الاقل وليدة الفتح العربي . اما الاسيوية فقد كانت
وليدة التوسع التركي - المغولي . وتقسم ايران الصلة الروحية بين
المجموعتين . فاذا اخذنا هذه النظرية نجدنا مسوقين الى تقرير الواقع الآتي :
- في منطقة البحر المتوسط اسلام ، عربي الاتجاه ، يؤلف جزءاً من

أوروبا - أفريقيا ، ويضم فيما يضم تركيا المنفصلة تاريخياً عن الأتراك - المغول .

- في آسيا اسلامٌ اسيوي ، غير عربي ، يضم الطورانيين ومسلمي الشرق الأقصى ، وهو يجنح سياسياً نحو مساندة اتجاهات أوروبا - آسيا . ويُلاحظ ، على العموم ، ان القوميات الاسلامية في أوروبا - أفريقيا تميل الى الافادة من المساعدة الانكلوسكسونية ، وان القوميات الاسلامية في أوروبا - آسيا تميل الى الافادة من المساعدة الروسية (باستثناء الهند) . وجدير بالذكر ان العناصر الاسلامية في أوروبا - آسيا (ما خلا الباكستان) لا تؤلف في الوقت الحاضر مجموعات قومية مستقلة . وقد يتمخض الفوران الاوروبي - الاسيوي عن جديد في هذا الحقل ، كما قد يسفر عن اندماج العناصر المذكورة في نظام لاديني بحيث تكون الصوفية السوفياتية دينها الحقيقي . ولما كانت ايران والافغان تؤلفان الصلة الجغرافية بين المجموعتين الاسلاميتين فقد استهدفها ويستهدفها ضغط روسي متزايد . الا ان هذا لم يمنعها من طلب المساعدة الاميركية .

ليس للاسلام الاسيوي ، في الظاهر ، نفسية اسلام المتوسط . فقد يؤكد بعض المسلمين ، عن حسن نية ، ان كل شيء في دينهم ينتهي بالحل المناسب على الصعيد الاسلامي . وهذا التأكيد خلق بالتقدير ، ولكن آسيا تحتفظ ، منذ ان كان البشر ، بطابع خاص . انها آسيا البوذيين والبراهمة ، وآسيا فلسفة لاو تسو وكونفوشيوش التي تقود الى صوفية الزهد المطلق بواسطة التأمل المستمر . « العمل شيء حسن وافضل منه الامتناع عن العمل » . بهذا يوحى حكماء الشرق الأقصى ، ولكن اذا كانت هذه الصوفية

تقود الافراد الذين بلغوا درجة عالية من السمو الروحي الى العزلة الرائعة ، المشوبة بالانانية الى حد ما ، فلن يترتب عليها في بيئة السواد الجاهل سوى وقوع هذا السواد تحت تأثير الاوهام والسحر .

ان فلسفات الشرق الاقصى هي ، ولا شك ، ذات مفاهم سامية ، ولكنها لا ترضي آسيا المتعطشة الى مثالية اقرب منالاً ، تأخذ بعين الاعتبار حاجات العنصر المادية . لهذا يمكن ان ترحب آسيا ، ولو مؤقتاً ، بشيوعية من الطراز الروسي ، تفي بحاجات الروح والجسد معاً . لا يمكن التنبؤ بنتائج هذا الفوران . بيد ان الاديان الموحدة ، التي عجزت عن استمالة السواد الاسيوي ، تجد نفسها حيال مسألة بالغة الخطورة : ما عساه يكون موقف آسيا من النظريات الحديثة المؤهلة لخدمتها والمصوغة على صورتها ومثالها ؟ لقد هدى الاسلام العديد من ابناء الشرق الاقصى ، ولكن الموجة التي حملت الاسلام الى الشرق البعيد هي موجة التوسع التركي - المغولي ، وليست موجة الفاتحين العرب . وقد تأثر مسلمو آسيا ببيئتهم فكان لهم طابعهم الخاص . في الغرب يقود تعاون الفكر والعمل الى استنباط الوسائل القمينة بتحسين مستوى الانسان . وهكذا يفعل الاسلام حيث لا مكان لدكتاتورية العقل ، ولكن الخضوع لمشية الله لا يقود الى الزهد ولا الى الجمود . ألم يعد النبي المؤمنون بجنة يجزوت فيها خيراً على جهودهم ؟ فما تراه يكون مصير هذه النظرة الاسلامية الى الحياة اذا فرض التطور الاسيوي على العالم ايماناً جديداً ذا طابع مادي الى حد ما ؟ ان العرب الفخورين بعنصرهم وحضارتهم يخسرون كثيراً يوم تغطي المجموعة الاسيوية على البيئة الاسلامية التي لا

يستطيع العرب ان ينفكوا عنها .

من هنا كانت اهمية الشرق الادنى كنقطة واقعة بين اوروبا - آسيا واوروبا - افريقيا .

لقد بسطنا المسألة دون ان نتصدى حلها ، لانه يعود الى المسلمين ، والمسلمين وحدهم ، ان يفكروا ويقرروا ، مستلهمين ايمانهم .



سندرس تباعاً اوضاع الشعوب الاسلامية في تركيا ، ودول المشرق ، والبلاد العربية ، وايران ، والافغان ، وهي الشعوب التي اهدت في ظل الفتوحات العربية ، ثم اوضاع الشعوب التي حملت اليها الاسلام موجة من التوسع التركي - المغولي بما فيها روسيا ، والهند التي ترك فيها هذا التوسع اثره العميق بالرغم من حرصها على طابعها الخاص . وسندرس اخيراً اوضاع الشعوب الاسلامية في المتوسط الغربي .

تركيا الحديثة

ترتب على خسارة الاتراك الحرب العالمية الاولى التي كانوا فيها حلفاء الالمان ، خروج تركيا من اوروبا وانطواؤها على نفسها . وجاء يوم اشرفت فيه هذه الدولة على الانحلال . ذلك بان اميركا انبرت تشجع قيام دولة ارمنية ، وراحت انكلترا تحرض اليونانيين على اقتطاع ولاية ازميز ، وابت ايطاليا الا ابقاء قواتها في سيواس واذاليا ، وفكر نفر من رجال الدولة الفرنسيين ، ككليمنصو ، رغبة منهم في القضاء على الخطر التركي قضاءً مبرماً ، في انشاء مجموعة دويلات غير تركية في المنطقة الممتدة من طرابزون الى الاسكندرون ، وذلك بتشجيع النزعات الانفصالية من ارمنية وكردية ، وهو مشروع يفضي تحقيقه الى حصر الاتراك في الاناضول ، ولكن « بريان » لم يتحمس للفكرة ، ونهج سياسة مشبعة بالعطف على تركيا التي اعتمدت في دفاعها عن ذاتها على مساعدة حكومة موسكو .

في هذه المرحلة الدقيقة برز مصطفى كمال باشا الذي انفصل عن اقطاب حزب الاتحاد والترقي دون ان يتنكر لمنهاج الحزب ، واستطاع ، بعد توسيع هذا المنهاج ، تأليب الاتراك على الاجنبي . برز في الظرف العصيب ، وفرض نفسه ديكتاتوراً ليخرج من بين انقاض الامبراطورية العثمانية تركيا الجديدة .

ويلوح ان مصطفى كمال لم يشأ، وهو يمضي قدماً في عمله الضخم، ان يسند الى بلاده دورها التقليدي في العالم الاسلامي. ولو انه فكر في اعطائها هذا الدور لاعوزته الوسائل المادية. والملاحظ - وهنا وجه الغرابة - ان الشعوب، في تطورها نحو الاخذ بفكرة الوطن، ينتهي بها الامر الى اهمال الكليات، وان الافكار تنجح في الحقل الروحي والعملي الى مسايرة النزعة الاممية او على الاقل الى القول بنظام اتحادي واضح المعالم. وتركيا هي احد الامثلة البارزة على ذلك.

من الوجهة الاسلامية العامة كان آخر ما سجلته تركيا الدولة المسلمة الوقائع الآتي بيانها:

في العام ١٩١٧ اطلق على الجيش العثماني في القوقاز اسم «جيش الاسلام»، ووضع تحت امرة القائد الالماني الجنرال كريس فوت كريشنشتاين، وكان وثيق الصلة بقنصل المانيا في بندر بوشير Bender-Bouchir المهر «فاموس» الذي اقتطع مملكة حقيقية في سيوزستان. وفي نيسان ١٩١٨ كفت بلاد الكرج (جيورجيا) واذربيجان عن النضال. اما ارمينيا التي عزلتها العاصفة فقد استمرت في المقاومة بقيادة الجنرال نازاربيكوف، واتاح صمود الارمن في باكو حتى الحريف للنجدات البريطانية ان تصل في الوقت المناسب. وفي ١١ تشرين الثاني ١٩١٨ اعلنت الهدنة على الراين. وفي الشرق انخسرت الموجة العثمانية وتبعثرت صفوف «جيش الاسلام». وهكذا تبخر الحلم الجرمانى - التركي بزحف اسلامي جديد باتجاه الهند.

وما ان اعلنت الهدنة حتى وقف مصطفى كمال باشا في وجه السلطة المركزية، وندب نفسه للدفاع عن استقلال تركيا استقلالا

تأماً ناجزاً . وكان أحد منافسيه ، انور باشا ، قد اخذ على عاتقه بعث الحركة الطورانية في آسيا الوسطى ، ولكن لمصاحته الشخصية ، بعد ان سبق له في طرابلس الغرب ان قام بمحاولة جدية لاعادة النفوذ التركي ، ولكن لحسابه الخاص . ودعم الروس حركة انور اقتناعاً منهم بانها تخدم مصالحهم ، بعدما ضاع من الاتراك نفوذ الخلافة الديني . وما داموا قد تركوا هذا العامل الفعال يفت من ايديهم ، فلم لا تقبض موسكو على الزمام ؟ يكفيها ان تختار رجلاً وتساعد في انشاء دولة ودعوة الاتراك ثم الطورانيين الى الالتفاف حوله . ومتى تم له ذلك لا يلبث سائر مسلمي العالم ان يحدوا حذوهم ، فيعلن رجل موسكو نفسه خليفة ، ويتولى مقدرات الاسلام برعاية الروس . هذا هو المشروع الذي ربما كان بالامكان تنفيذه اليوم بشكل آخر . لم يكن الرجل ، الذي اختاره الروس - اي انور باشا - لتمثيل الدور الذي اختاروه له ، مكاناً في وطنه تركيا ، فقرر ان يجعل منه سلطان تركستان حيث كان السنوسيون قد اعدوا العدة لانشاء دولة ذات مركز ديني . وقد هبط انور تركستان ، وقدم اليه الروس المساعدة المالية اللازمة ، وجهزوه بالسلاح والذخيرة ، وما لبث ان انشأ نواة دولة بفضل دعاوة بارعة ضربت على وتر القوميات (النظام الاتحادي) ، الا انه ، وهو المغامر الجريء ، لم يلعب الورقة الروسية بامانة ، وخيل اليه انه يستطيع ان ينسج على منوال مصطفى كمال ، فيعمل مستقلاً عن موسكو . وفي حزيران ١٩١٩ نزع القناع عن وجهه واحتل بخارى وسمرقند . وراوده حلم تيمورلنك ، فحسب نفسه قادراً على الاتصال بمسلمي تركستان الصينية عبر مضيق خيبر ، ولكن حكومة السوفييات بادرت الى حشد

قواتها في مضيق كوشك واسكباد ، ولوحت بمساعدتها لامراء بخارى الذين عزلهم انور ، فاعلنوا العصيان ، وكان ان هزم انور وهلك في كمين نصب له .

وهكذا تبخر الحلم التركي بانشاء امبراطورية اسلامية في طوران ، واضحت الوحدة التركية والوحدة الطورانية من ذلك لفظتين لا تعنيان شيئاً . بيد ان تذكيرنا بمحاولة موسكو منذ ٣٤ عاماً لا يخلو من فائدة . فحركة الوحدة الطورانية قد تبعث يوماً بتشجيع من الروس كما سنرى عند درس اوضاع الاسلام الاسيوي ، هذا الاسلام الذي تحرر نهائياً من الفوذ والتاثير التركي ، وقد يأتي يوم ينجح فيه بدوره الى تهديد « الوطن » التركي . ومن يدري ، فقد يكون تخوف تركيا من هذا الاحتمال احد العوامل التي تلي عليها موقفها الحالي . يضاف الى هذا ان تركيا لا يمكنها ان تهتم مباشرة بالاتراك المسلمين الذين تخلفوا في اوروبا ، مع العلم ان الاتراك في الخارج ينوف عددهم على عدد سكان تركيا الحالية ، وهم يؤلفون مجموعتين احدهما في البلقان والاخرى في روسيا . فاتراك المجموعة الاولى يتدفقون على آسيا الصغرى مندفعين مع تيار الهجرة الجارف ، ولكن تركيا لا تملك حق التدخل في شؤون محض محلية . اما اتراك المجموعة الثانية فكل تدخل من جانب انقره لمصلحتهم يصطدم بسياسة موسكو الحازمة .

يتضح مما اسلفنا ذكره ان هزيمة تركيا في الحرب العالمية الاولى وانخفاق « جيش الاسلام » ، جيش انور باشا ، قد اضطرا الاتراك ، من الوجهة الاسلامية ، الى الانطواء على انفسهم لينصرفوا الى تنظيم دولتهم الجديدة وليدة ذبول الحرب . واتخذ هذا الانطواء شكله

الصريح بنقل العاصمة من استمبول الى انقرة ، وبتصدي مصطفى كمال لمحاربة كل فكرة تقول بالتوسع خارج الحدود على اساس المثالية الدينية . وفي ٢٠ تشرين الاول ١٩٢٣ الغى المجلس الوطني الكبير في انقرة السلطة العثمانية متهماً اياها بالتآمر مع الاجنبي ، واعلن الجمهورية ، وجعل من السلطان نفسه الرئيس الديني الاعلى للمسلمين . وفي ٦ آذار ١٩٢٤ الغيت الخلافة بقرار من المجلس الوطني الكبير ، ذو الاكثرية العلمانية ، وعلى الاثر الاثر بادر السلطان الى مغادرة تركيا في سفينة انكليزية . وكما زالت الخلافة العربية في العام ١٥١٧ زالت كذلك الخلافة العثمانية في العام ١٩٢٤ .

وعلى الجملة « قامت عظمة مصطفى كمال باشا (اتاتورك) على انشائه امة منظمة على انقاض الامبراطورية العثمانية المنهارة ، امة من طراز امم الغرب . وسرعان ما احتلت الجمهورية التركية مركز الصدارة بين الامم الاسلامية بفضل الاصلاحات الاساسية الشاملة التي عجلت تطور البلاد ^١ . »

ومن هذه الاصلاحات جعل الدولة ذات طابع علماني شامل ، والغاء الخلافة ، وتوحيد التعليم وجعله علمانياً ، والغاء الحاكم الشرعية ، وسن قانون مدني تركي مستوحى من القانون السويسري ، وحظر تعدد الزوجات ، وسن قانون جزائي مستوحى من القانون الايطالي ، وسن قانون للتجارة مستوحى من القانون الالماني . ولم يكن الطريق مهداً امام عجلة الاصلاح ، فقد تسلم اتاتورك بارادة فولاذية واضطر

١ ليوتنان كولونل تريشه: « مدخل الى معرفة الاسلام » صدر في العام ١٩٤٩ .

Lieutenant-Colonel Truchet, *Initiation à la Connaissance de l'Islam*, Paris.

حياناً للجوء الى القسوة ، ولم يتردد في اعدام الذين قاوموا الاصلاح ،
اغير مستثن رجال الدين .

والكي يعطي الاصلاح طابعه الشعبي ، حظر الاعترار بالطربوش
وجعل الاعترار بالقبعة الزامياً (نيسان ١٩٢٤) . وفي العام التالي حل
الطرق والزوايا ، واعتمد الروزنامة الغريغورية . وفي العام ١٩٢٨
استبدل من الحروف العربية الحروف اللاتينية ، ثم ألغى اللغة العربية
من مناهج التعليم ، وحتم الآذان بالتركية . وفي العام ١٩٣٢ امر
بترجمة القرآن الى اللغة التركية .

واجتهد اتاتورك في القضاء على بقية من نفوذ احتفظ بها الاجانب
في البلاد . فبعد انتصاره على اليونان (١٩٢٠ - ١٩٢٢) اعترفت
معاهدة لوزان (١٩٢٤) بالجمهورية التركية . واستكملت تركيا
معالم تحريرها بالغاء الامتيازات الاجنبية . وفي العام ١٩٣٦
اعترف مؤتمر مونترو بسيادة تركيا المطلقة على المضائق . وفي هذه
الائناء استرد الجنرال كاظم قره بكير ارمينيا وارضروم ، تاركاً
للروس جمهورية ارمينيا الصغيرة في اريفان . وفي العام ١٩٢١ تنازلت
فرنسا المؤيدة للنظام التركي الجديد عن حقوقها في كيليكيا
(ارمينيا الصغرى) ووافقت على ان يكون الخط الحديدي
« بغداد باهن » حداً فاصلاً بين تركيا وسوريا (بين حلب ونصيبين -
القامشلية) ، ثم تنازلات عن سنجق الاسكندرون الذي كانت سوريا
تطالب به .

وهكذا صفتى مصطفى كمال لمصلحته حساب المسألة الشرقية
وتركة « الرجل المريض » . وتوصل في العام ١٩٣٣ الى انشاء الكتلة
البلقانية . وبعد اربعة اعوام عقدت تركيا وايران والعراق

والافغان ميثاق سعد آباد . وقد كان لانتصاره الباهر على اليونانيين ولنجاحه في الحقل الدبلوماسي تأثيرهما في دعم مركزه وتقوية نفوذه ، فأمل العديد من مسلمي العالم بعث قوة الاسلام على يده ، ولكن اثاتورك خيب آمالهم ، فحركة الوحدة التركية التي جالت في رأس عبد الحميد ثم ولدت حركة الوحدة الطورانية قد توارت مع انور باشا في صحارى تركستان . اما حركة الوحدة العربية التي نمت بعد الحرب العالمية الاولى ، فقد انبرت لاجباط كل محاولة تهدف الى ايلاء تركيا ، مجدداً ، زعامة العالم الاسلامي . وجاء الغاء الخلافة ، وفي اعقابه الاصلاحات التي لم توفر الدين نفسه ، فوضع حداً لتفاؤل المتفائلين .

كان مصطفى كمال رجلاً حكيماً ، دال على بعد نظر بصرف اهتمامه الى ابراز القوى البناءة في الامة التركية والعمل على انماؤها . كان عليه ان يشيد الدولة العلمانية وان يجرر بلاده من آخر اثر للنفوذ الاجنبي ، ليتسنى له ، بفضل السياسة الموجهة وتدابير التأميم ، النهوض بالاقتصاد القومي على اسس سليمة . ولا ريب في ان ما حققه رجل تركيا الحديثة يجعل منه احـد عظماء التاريخ المعاصر . ويمكن القول ان تركيا ، كروسيا في عهد بطرس الاكبر ، هي مثال حي لما تستطيعه ارادة الزعيم القادر ، فقد قفزت الى مصاف الدول الحديثة بقيادة مصطفى كمال ، متغلبة برجلها الفذ على الصعاب التي اعترضت سبيلها .

وجدير بالذكر ان روسيا التي زينت لانور باشا القيام بحركته في تركستان عادت بعد اخفاق هذه الحركة فدعمت تركيا ضد اليونان التي كانت تعتمد على الانكليز . وبينما كان هؤلاء يشجعون

الحركة العربية ، كان مصطفى كمال يلعب لعبته السياسية التي مكنته من اعادة بناء الاستقلال الوطني على اسس سليمة . ولا بد من الملاحظة ان التطور التركي كان في الاصل تطوراً ذا طابع قومي اكثر منه حركة موجهة ضد الاجانب . وئن يكن مصطفى كمال قد استخدم التكنيك الغربي في انشاء دولة عصرية الطراز ، فقد حرص على جعل هذه الدولة منسجمة مع تقاليد الامة التركية . ويمكن القول ان اتاتورك العلماني لم يبتعد عن الحدود التي رسمتها السنة والتقليد الاسلاميان^١ .

ولا بد من الملاحظة كذلك ان التطور التركي كان ضد العرب اكثر منه ضد الدين . فاللغة العربية هي لغة القرآن . وقد استغل العنصر العربي التوسع الاسلامي ، وفرض سيطرته ، وتقلصت هذه السيطرة بعد ضياع الخلافة من العرب . اما نفوذ هؤلاء فانه لم يتقلص الا بمقدار ، لان التعمق في العلوم الدينية كان هنا بمعرفه اللغة العربية ، لغة القرآن . ولما كان العرب قد حاربوا الاتراك في النزاع العالمي الاول ، فقد حرص زعيم تركيا الحديثة على تحرير الدولة من نفوذهم الروحي ، بمحاربة الثقافة العربية ، وهي ثقافة دينية في جوهرها ، فكانت علمانية الدولة . ولعل هذه الخطوة الجريئة قد وجدت لها حافزاً في الاتجاه التركي - المعولي القديم نحو اخضاع الدين للدولة . اما الشعور الديني نفسه فيمكن الجزم

١ كنا في استنبول عندما جعل اتاتورك الاعتراف بالقبعة الزامياً . وقد رأينا العديد من المؤمنين يتناولون على القانون فيضون القبعة فوق الطربوش والعامة . واكتشف مصطفى كمال اللعبة ، ولكنه اغضى عنها .

بأنه لم يس، وان الجمهورية العلمانية فتحت ذراعيها للإسلام مشروطة على رجال الدين الا يعترضوا عجلة الاصلاح .

بما لا ريب فيه ان مصر تمتعت دائماً في العالم الاسلامي بمركز ممتاز بفضل ايمان عوامها وتبجرهم ، ولكن النفوذ الفعلي كان لتركيا . ذلك بان الامبراطورية العثمانية كانت في نظر المسلمين الحصن الزماني الذي تقف عند اسواره موجة التوسع المسيحي . وفي عهد السلاطين كانت صلاة الجماعة تقام في معظم مساجد العالم الاسلامي باسم السلطان الخليفة . وبعد ان منيت الامبراطورية العثمانية بتلك السلسلة من الهزائم الساحقة واحرز مصطفى كمال الملقب بالغازي انتصاراته الباهرة ، ابتهج العالم الاسلامي بهذه الانتصارات واكتشف في رجل تركيا الجديدة اول زعيم مسلم يقف في وجه الدول الاوروبية . وقد تقبل الرأي العام الاسلامي فتوحات الغازي قبولاً حسناً (باستثناء بعضها كما تقدم معنا) لانها ترمي الى بعث تركيا امة قوية ، واولى الدول الاسلامية الحديثة .

يقول « بلشغران » في كتابه « الاسلام في العالم » انه يمكن ان يرد الى نجاح حركة مصطفى كمال الحركات السياسية الاستقلالية التي قامت في البلاد الاسلامية الاخرى كمصر وتونس والعران والهند وشبه الجزيرة العربية . ومهما يكن من امر فلا جدال في ان ما قام به رجل تركيا قد اضفى على التطور الاسلامي معنى جديداً . واذا سلمنا بوجود شيء اسمه « الجمود العربي » ناشىء عن التزم والتشبث باهداب التقاليد ، فيبقى ان عمل ائتاتورك قد افزع المفكرين في العالم الاسلامي بان انشاء دول حديثة يتطلب الاخذ باسباب التجدد ، وجعلهم اكثر تفهماً للمبدأ الغربي القائل بفصل الدين عن الدولة ،

واوفر استعداداً لتقبل هذا المبدأ واعتباره ضرورياً لإنشاء « وطن »
 بفهوم الاوطان الحديث . وشعرت الشبيبة . بوجوب فتح مغالق
 الحضارة الغربية فتسلح بثقافة علمية وعملية من شأنها التعجيل بتحرير
 الشعوب الاسلامية .

ولئن يكن بعض علماء الشرع نظروا الى اتاتورك ، ليس باعتباره
 المهدي ، ورجل الساعة ، بل « باعتباره الشيطان بصورة انسان ،
 تنكر للدين والقرآن ، وتخطى التقاليد وقاد شعبه - بعد ان حرره
 من سيطرة الاجانب - على طريق العلمانية مرتكباً بذلك ما يستحق
 اللعنة » ، ولئن يكن بعض المهووسين قد حسبوا الثورة الكمالية
 انتصاراً للفكر الاوروي وهزيمة الاسلام ، فان كثرة المسلمين قد
 ادركت ان كل شيء سينتهي ، على الصعيد الاسلامي ، الى ما فيه
 خير الاسلام ، وان المهم هو التحرر من السيطرة الاوروبية وانشاء
 دولة اسلامية مستقلة وقوية . ومن هنا كان ظهور الجمهورية العلمانية
 التركية حدثاً بارزاً ونقطة تحول خطيرة في تطور الاسلام .

لم تمنح الحوادث لتركيا الجديدة الفرصة الكافية لتوطيد اقدامها
 على نحو ما أمثل معظم المسلمين . فقد بذل عصمت اينونو ، الذي
 خلف اتاتورك في رئاسة الدولة ، قصارى جهده في اكمال ما بدأه
 سلفه ، ولكن الحرب العالمية الثانية ، التي لزمتم فيها تركيا الحيدة ،
 قد جعلتها في شبه عزلة ، يداريها المتحاربون تارة ويتوعدونها اخرى .
 وقد قصرت نشاطها في النزاع على تمثيل دور محض سلمي ، غير
 مكترثة لمصير الدول البلقانية والدول الاسلامية في الشرق ، بما
 افقدها بعض نفوذها في دنيا الاسلام ، مع العلم انه لم يكن في
 وسعها ان تفعل غير ما فعلت .

وقد القى الخطر الروسي ، مذ ذاك ، على عاتق الاقتصاد التركي
 الآخذ بالنمو ، اعباء مالية وعسكرية باهظة . وفي الحقل الداخلي طرأ
 على الوضع الذي خلفه اتاتورك تبدل اساسي ، فقد وصل الى الحكم ،
 بعد انتخابات ١٩٥٠ ، حزب غير متحمس للديكتاتورية الكمالية ، ورافقت
 هذا الحدث انتفاضة دينية ترمي الى اعادة بعض الامتيازات الى
 الدين . اجل ، سجل العام ١٩٥٠ تطوراً جديداً . فمصطفى كمال والزعماء
 الذين اخلصوا لرسالته قد انشأوا جمهورية علمانية في قلب آسيا
 الصغرى ، ولكن الانتخابات اسفرت عن فوز الحزب الديمقراطي
 فاحرز ٣٥٣ مقعداً في البرلمان تمثل ٤٣٠٠٠٠٠ صوت ، واحرز الحزب
 الجمهوري (حزب اينونو) ٥٥ مقعداً تمثل ٣٣٠٠٠٠٠ صوت . وهكذا
 انتقل الزمام من يد الى يد . وقد اخذ رئيس الدولة الجديد جلال
 بياربعين الاعتبار امانى الشعب الدينية . فبعد ثلاثين عاماً من الغاء
 الخلافة سمحت السلطات الجديدة للمسلمين الاتراك بان يؤذنوا بالعربية ،
 وباستعمال اللغة العربية قراءة وكتابة بعد ان كان استعمالها محظوراً
 حتى في المساجد . واتخذ النظام الجديد من التسامح شعاراً له باسم
 العلمانية . وهكذا استمال الحزب الديمقراطي رجال الدين بعد ان
 قاطعوا السلطات الزمنية طيلة ثلث قرن . الا ان هذا لم يمنع جلال
 بيار وحكومته من اتخاذ تدابير معينة ضد بعض الطرق كالنقشبندية
 والبيجانية (١٩٥١) .

وجدير بالذكر ان العناصر غير التركية كالارمن والاكرد
 لم تلق السلاح بالرغم من تدابير القمع الشديدة . وقد سبق لنا وتحدثنا
 عن الارمن الذين لم يواتهم الحظ الذي آتى اليهود ، فما استطاعوا
 انشاء وطنهم القومي المستقل ، وكل ما توصلوا اليه هو انشاء اريفان

او ارمينيا السوفياتية . اما الاكراد فقد اكرهوا على التسليم والطاعة بعد ان كانوا قد تقدموا من عصبة الامم والحلفاء بمطالبهم القومية (انشاء وطن كردي يمتد من درسيم الى الاسكندرون) . وبقيت معلقة المسألة الكردية بوجه عام (اي مصير اكراد تركيا والعراق وايران)^١ . وثمة اقلية مسيحية واخرى اسلامية منشقة تحتفظ في الدولة التركية الحديثة بطابعها الخاص . فتركيا الحديثة التي وحدها اثنائورك لا تخلو ، والحالة ما ذكرنا ، من خميرة قلاقل واضطرابات تهدد السيادة القومية ، ويمكن ان تستغلها الدعاوات الاجنبية ابرع استغلال .

ان تركيا هي جزء من آسيا الصغرى . ويشاء التاريخ ، الذي يأبى الا ان يعيد نفسه ، ان يكون احفاد اولئك العثمانيين ، الذين انهزموا في الماضي امام جحافل المغول ليحطوا رحالهم في الاناضول ، مهددين اليوم بطغيان الموجة الاسيوية . لقد غلب على الاتراك - وهم من اصل اسيري - الطابع المتوسطي البارز في سماتهم وطرز معيشتهم ونموهم الفكري ومصالحهم السياسية والاقتصادية . وهذا الواقع لا يجبهه زعماء تركيا الحديثة ، وقد رأيناهم ينحازون الى المعسكر الغربي ، مع العلم ان تركيا مرتبطة مع بريطانيا العظمى منذ ١٩٣٦ بميثاق المساعدة المتبادلة . وفي العام ١٩٤٨ طلبت حكومة انقره من الولايات المتحدة الاميركية ان تؤمن للجيش التركي حاجته من السلاح والتجهيزات . وبعد عامين طلبت قبولها عضواً في

١ مسعود فاني بك : « المسألة الكردية » .

حلف المحيط الاطلسي ، ثم انشئ محور تركي - يوناني ضمن اطار هذا الحلف . وفي اواخر ١٩٥١ تبنت تركيا واليونان مشروع الدفاع عن الشرق الاوسط ، وارسلت حكومة انقره فرقة تركية الى كوريا لتجارب فيها وقوات الامم المتحدة جنباً الى جنب . تريد تركيا ان تواجه الاتحاد السوفياتي في الحرب وهي مطمئنة الى مؤخراتها . ومن هنا كان اهتمامها البالغ في ان ترى دول الشرقيين الاوسط والادنى اعضاء في حلف المحيط الاطلسي . وواضح ان مصاعب بريطانيا العظمى في ايران ومصر من شأنها ان تعوق حل هذه المسألة ، وان مجرد زوال هذه المصاعب لن يزيل ما في النفوس من ضغائن ومخاوف .

ولا ريب في ان للخطى التي خطتها تركيا في ميدان السياسة الخارجية معنى عميقاً ومغزى بعيداً ، ولا ريب كذلك في انه يترتب عليها نتائج خطيرة لانها تربط مقدرات الاتراك بمقدرات اوروبا - افريقيا في وقوفها بوجه اوروبا - آسيا . يضاف الى هذا ان تركيا هي الدولة الاسلامية الاولى المستقلة في منطقة البحر المتوسط التي تواجه الاسلام الطوراني المعادي للعروبة والتي تقدم ، بمحض رضاها ، على ضم جهودها الى جهود الحضارة الغربية الرامية الى تنظيم الدفاع المشترك . وهذا الموقف يقفه الاتراك سيكون له اثره في توجيه سياسة سائر المسلمين في منطقة البحر المتوسط . ويمكن القول ان ما اتخذته اخيراً حكومة انقره من خطى في مصلحة العروبة قد اكسبها مجدداً عطف الدول العربية . ومن يدري ، فقد يفكر الاتراك يوماً بدعوة هذه الدول الى الانتظام في ميثاق متوسطي يكون عملياً اكثر قيمة من ميثاق سعد آباد .

في الشرق الادنى : سوريا ولبنان

الشرق الادنى

الدول العربية في الشرق الادنى هي سياسياً وليدة انهيار الامبراطورية العثمانية عقب الحرب العالمية الاولى (١٩١٤-١٩١٨) . وقد اغفل التقسيم المصطنع ، الذي اختص كل دولة برقعة من الارض ، الضرورات الجغرافية ، واماني الشعوب من قومية ودينية .

حتلت القوات البريطانية والفرنسية سوريا ولبنان في الثامن من تشرين الاول ١٩١٨ . وبعد احد عشر شهراً وضعت عصبة الامم البلدين تحت الانتداب الفرنسي الذي جعل منها اربع دول : سوريا ، لبنان ، بلاد العلويين ، جبل الدروز . وقد اكتسب لبنان قبل جاراته صفة الدولة الشرعية بموجب دستور اعلن في ٢٣ ايار ١٩٢٦ . وبعد ست سنوات نالت سوريا دستورها (١٤ ايار ١٩٣٠) واضحي كلا البلدين جمهورية برلمانية مستقلة . اما بلاد العلويين وجبل الدروز فقد اعتبرتا حكومتين تتمتعان باستقلال ذاتي ، على رأس كل منهما حاكم فرنسي يعاونه مجلس تمثيلي .

وكان العراق (بلاد ما بين النهرين) والاردن (دولة محدثة) وفلسطين قد وضعت تحت الانتداب البريطاني . وقد جاء هذا التوزيع مخيباً لآمال العرب الذين كانوا يطمحون الى انشاء دولة جديدة تضم البلاد العربية المنساختة عن الدولة العثمانية ،

كخطوة أولى نحو بعث السيطرة العربية في العالم الاسلامي ، هذا الحلم الذي شجعه - ان لم يكن قد اوحى به - الكولونيل لورنس الذي حمل لواء هذه النهضة . وكان على انكلترا ان تقي بتعهداتها للعترة الهاشمية بشخص عميدها الشريف حسين الذي ألّـب الحجاز على العثمانيين . لهذا يمكن القول ان وراء الاحداث التي كان الشرق الادنى مسرحاً لها خلال الاعوام الثلاثين الاخيرة حالة العرب النفسية ، ونشاط الانكليز العلياني ، او السري ، ضد الامتيازات التي احرزتها فرنسا بحكم دورها التاريخي في المشرق .

سوريا ولبنان بين ١٩١٩ - ١٩٣٩

ما ان ظهرت حركة الوحدة الاسلامية (حركة السلطان عبد الحميد) الموآتية ، الى حد ما ، الحركة الجرمانية ، حتى انبرى الانكليز لتحريض العرب على الاتراك ، مشجعين بذلك نمو حركة الوحدة العربية . ومنذ العام ١٨٩٠ ظهرت اولى بوادر هذه الحركة :
- مقاومة سياسة عبد الحميد .

- صدور مجلة « يتظة الامة العربية » لصاحبها نجيب عازوري (١٩٠٥) .

- نشر بيان « اللجنة القومية العربية » ، وقد وجهته الى الدول العظمى (١٩٠٦) .

- التثام المؤتمر العربي في باريس (١٩١٣) .
وفي هذه الاثناء كان الامير شكيب ارسلان يقوم في جنيف على رأس اللجنة ، السورية - الفلسطينية - المغربية بدعوة منظمة

لمصلحة العرب والعروبة .

كانت مكة مركز هذه الحركات . وعند نشوب الحرب العالمية الاولى غذى الحلفاء ، ولاسيما انكلترا وفرنسا ، نعمة العرب على العثمانيين . وفي ٢٦ تشرين الاول ١٩١٥ عقدت انكلترا مع الشريف حسين بن علي معاهدة سرية تعهدت فيها بمساعدته مالياً ومعنوياً . وفي الوقت نفسه التحق بخدمة الشريف الكولونيل ويلسن والكولونيل اورانس ، بينما التحق جون فيلي بخدمة ابن سعود في نجد .

وفي حزيران ١٩١٦ شهر الشريف حسين السلاح في وجه الاتراك . وبعد ان اعلن استقلال الحجاز وانفصاله عن الدولة العثمانية ، اعلن نفسه ملكاً (ملك العرب) . وعلى الاثر اوفدت فرنسا الى الحجاز بعثة الكولونيل بريمون الذي كان على خلاف مع لورانس . وفي العام ١٩١٩ بذلت فرنسا وانكلترا وعوداً صريحة للعرب غداة دخولهم دمشق تتقدمهم فصائل « بيزاني » التابعة لبعثة بريمون فضلاً عن الانكليز . ولكن فرنسا وبريطانيا العظمى كانتا قد عقدتا اتفاقات سرية (١٩١٦) اشتملت على خطة لاقتسام البلاد العربية فور انتهاء الحرب . وقد كان ثاني هذه الاتفاقات (اتفاق سايكس - بيكو) الاساس الذي بنيت عليه معاهدة سانت ريمو (١٩٢٠) ، وهي المعاهدة التي فرضت على العرب الشروط الآتية بيانها :

- الاعتراف بحسين بن علي ملكاً للحجاز .
- الاعتراف بانتداب فرنسا على سوريا ولبنان وبلاد العلويين وجبل الدروز ، وبانتداب انكلترا على العراق .
- في فلسطين يحتفظ برقعة دولية ينشأ عليها ، فيما بعد ، الوطن

اليهودي في النطاق الذي حدده تصريح لورد بلفور (٢ تشرين الثاني ١٩١٧) ، على ان يوضع سكان فلسطين العرب تحت الحماية البريطانية .
— احدثت دولة الاردن ووضعت تحت الحماية البريطانية ، واحتفظ بها لعبدالله احد انجال الحسين بن علي .

وهكذا ضمنت انكلترا لنفسها قاعدة تراقب منها ما يجري في فلسطين وتغطي طريق الهند عبر البحر الاحمر ، واستطاعت في الوقت نفسه ارضاء العترة الهاشمية .

وقد وضعت معاهدة سان ريمو موضع التنفيذ دون ابطاء ، ولكن تنفيذها اصطدم باكثر من عقبة . كان الامير فيصل قد دخل دمشق ، وما لبث ان اعلن نفسه ملكاً ، معتمداً على تأييد انكلترا وعلى ما حسبه موافقة ضمنية من جانب فرنسا . وعلى الاثر اتهمه الجنرال غورو ، المفوض السامي الفرنسي في سوريا ولبنان ، باثارة الاضطرابات ضد فرنسا المشغولة بالنزاع بينها وبين تركيا في كيليكيا . وبحجة وضع حد لهذه اللعبة ، زحف الجيش الفرنسي الى دمشق وخرج منها الملك الذي عوَّض عليه الانكليز بان قدموا اليه عرش العراق . اثارت هذه الحوادث ، مضافاً اليها معاهدة سان ريمو ، نقمة العالم العربي ، فالتف فريق من المشتغلين بالسياسة العربية اللبنة السورية — الفلسطينية (مركزها القاهرة) . وسرعان ما وجهت هذه اللبنة معظم نشاطها ضد فرنسا . ذلك بان الانكليز كانوا قد حققوا للعرب بعض امانيتهم ، فوجود الهاشميين في الحجاز والعراق والاردن هو خطوة لا بأس بها نحو تحقيق الوحدة العربية المنشودة .

ولكن الموقف تبدل في البلاد العربية منذ ١٩٢٠ . فقد برم العرب بالحسين بن علي اعتقاداً منهم انه صنيعة الانكليز . ذلك ان

المسلمين عموماً ، والعرب على الاخص ، انهم استخدموا غير المؤمن ، فانهم لا يتحملون السيطرة الاجنبية الا بمشقة . لهذا رأينا ابن سعود زعيم وهابي نجد (ويمكن ان نصفهم بانهم بروتستنت الاسلام) يقف في وجه الحسين عندما رشح ملك الحجاز نفسه خليفة بعد الغاء الخلافة العثمانية . وقد تغلب الوهابيون على الملك الهاشمي بالرغم من مساندة الانكليز له ، واجتاحوا الحجاز . فتنازل الحسين لنجله علي الذي اضطر بدوره للتنازل عن العرش في العام ١٩٢٥ عقيب سقوط المدينة المنورة بأيدي الوهابيين . وهكذا تألفت العربية السعودية من نجد والحجاز . اما الملك حسين فقد توفي في جزيرة قبرص .

وبخروج فيصل من دمشق والملكين حسين وعلي من الحجاز اصبحت هبة الهاشميين بنكسة شديدة ، وباتت الوحدة العربية حلماً بعيد التحقيق ، وخاب ما آمله الكولونيل لورانس . بيد ان ما حدث لم يؤثر في مركز بريطانيا العظمى . ففي العراق فيصل ، وفي شرق الاردن عبدالله ، وكلاهما نجل الحسين ، وفي بلاط ابن سعود مستشار يدعى السرجون فيلي . يبقى ان وجود فرنسا في سوريا ولبنان ليس مما يسهل للعاملين تحقيق مشروع لورانس . ومن هنا كان اهتمام الهاشميين المتزايد بدول المشرق ، وسعيهم الحثيث في سبيل بعث مشروع الوحدة العربية تارة باسم سوريا الكبرى (الاردن - سوريا) ، وطوراً باسم « الهلال الخصيب » (سوريا - العراق) .

تقدم معنا ان كليمنصو اعد عقيب انتهاء الحرب العالمية الاولى مشروعاً يقضي بحصر الاتراك في الاناضول ، على ان يفصل بينهم وبين الشرق خط يمتد من طرابزون حتى الاسكندرون ، تنتشر عليه اقوام غير تركية من مسيحية ومحمدية ، فيكون للارمن جمهوريتهم بين

ارضروم واضنه (كيليكيا ، وارمينيا الصغرى ^١) ، ويتمتع الاكراد باستقلال ذاتي في وطنهم (كردستان) ، ويؤلف الاشوريون - الكلدان من ابناء ايران مستعمرات عسكرية بين دجلة والفرات ^٢ ، وسطها الزراعي في القامشلي والحسكة ، وينضم اليهم العديد من الاكراد بزعامة ملاكيسادتي ، وفي المشرق تؤمن الحماية اللازمة للاقلييات المسيحية والمحمدية (كالعلويين والاسماعيليين والدروز) ليتسنى لها الوقوف في وجه الاتراك والعرب ، عند الاقتضاء ^٣ .

ولكن رؤساء الحكومة في فرنسا يتبدلون باستمرار وتبديل تبعاً لذلك اتجاهات السياسة الخارجية . فلما خلف بريان كليمنصو ضرب صفحاً عن مشروع سلفه في وقت كان انتصار مصطفى كمال على اليونانيين الذين يساندنهم الانكليز يوحد كلمة الاتراك ويهيئ لهم للوقوف في وجه الاجنبي . وعلى الاثر عقد فرنكلان بويون مع حكومة انقره اتفاقاً اعادت فرنسا بموجبه الى الدولة التركية الجديدة منطقة كيليكيا ، مـخليةً بذلك عن مشروع « ارمينيا الكبرى » ، مما ادى الى هجرة ارمنية كبيرة الى سوريا ولبنان . وصرفت فرنسا النظر عن اثارة المسألة الكردية ، وتحلّت عن سياسة

١ في العام ١٨٦٠ دعم نابوليون الثالث عسكرياً الجمهورية الارمنية زيتون ، شمالي مرعش .

٢ حارب الاشوريون - الكلدان الاتراك في الحرب العالمية الاولى بقيادة الجنرال زازار ييكوف وامنوا الاتصال بين الروس في ارضروم والانكليز في بغداد (اغابطرس وملكيسادق) ودافعوا عن باكو . ثم حاربوا في سوريا في صفوف الفرنسيين .

٣ بيار ريدان في « كيليكيا والمسألة الدثانية » .

حماية الاقليات . وقد حداها الى اعتماد هذا النهج رغبتها في انشاء تحالف فرنسي - تركي ، ولكن هذه الخطوة لم تتم ...

وفي هذه الاثناء كان الجنرال غورو ينشئ « لبنان الكبير » بسلخ سهل البقاع عن ولاية دمشق وضمه الى لبنان . وقد ادى هذا التدبير - وكان الغرض منه فتح مجالات التنفس امام بيروت التي يحتم على صدرها الجبل - الى تفاقم نفمة الدمشقيين على فرنسا . وكان من عواقبه الخطيرة ان جعل من لبنان الماروني - حيث كان المسيحيون يؤلفون الكثرة - لبنان كبيراً ذا كثرة اسلامية . وقد انضم لبنان ، بشكله الجديد ، الى مصف الدول العربية في المشرق .

وخلال الفترة الممتدة بين الحربين العالميتين عمل الدمشقيون جاهدين في سبيل توسيع رقعة الوطن السوري ، كما عملوا في سبيل الاستقلال والتحرر من سلطة المفوض السامي الفرنسي . وقد اُلحقت بدمشق مدينة طرابلس^١ ، وهي ميناء على المتوسط ويبدأ فيها الخط الحديدي العادي المؤدي الى الداخلية . وهكذا عزل لبنان عن بلاد العلويين . وحاولت دمشق ضم سنجق الاسكندرون ، وكان خاضعاً لنظام خاص ، ولكن محاولتها اصطدمت بمعارضة الاتراك الذين ظفروا بالسنجق^٢ في النهاية ، كجزء من اراضي الوطن التركي .

سوريا ولبنان بين ١٩٣٩ و ١٩٥٢

لم تذهب جهود السوريين سدى . ففي ٩ ايلول ١٩٣٦ عقدت

١ لم تلحق طرابلس بسوريا . - العرب .

فرنسا وسوريا معاهدة اعترفت فيها حكومة باريس باستقلال الجمهورية السورية الموحدة (فقد انحلت بلاد العلويين وجبل الدروز بدمشق). وفي ١٣ تشرين الثاني من العام نفسه عقد لبنان - لم يبق لبنان الكبير موضع بحث - مع فرنسا معاهدة تحالف على اساس كونه دولة مستقلة ذات سيادة . ولكن البرلمان الفرنسي لم يبرم المعاهدتين ، فادى هذا الرفض الى تبلور الاضطراب الذي ما برح يتفاقم منذ ان كان الاحتلال (١٩١٩) . وقد بذلت فرنسا في بلاد المشرق مجهوداً ضخماً كان من نتائجه النمو المالي والاقتصادي وتنظيم المواصلات الخ ... فضلاً عن نشر التعليم والعناية بالصحة العامة . ولكن السوريين كانوا يأخذون عليها ، وعلى الحلفاء عموماً ، تسببهم في خراب سوريا . ذلك بان الموانئ السورية والمدن الكبرى الواقعة على ابواب الصحراء كحلب ودمشق كانت تؤمن منذ اجيال حركة الترانزيت التجارية بين الشرق والغرب . وقد ادى انشاء حدود جديدة وما تطلبه من قيود جركية ، كما ادى ظهور نقد خاص مرتبط بالفرنك الفرنسي بدلاً من الليرة الذهبية التركية الرائجة في آسيا الصغرى ، الى الحد من التجارة بشكلها القديم . ناهيك باندثار الصناعة اليدوية التي كانت تغذي القوافل بعد ان غزت الاصناف الاوروبية المصنوعة اسواق المشرق . واجتهدت فرنسا ، باشرافها على البدو ، في تنظيم تنقلات القبائل بين البلاد العربية وحدود كردستان ، محاولة حصرهم في مكان ، مما اثار مشاكل معقدة وخطيرة . يضاف الى هذا ان المتعلمين من خريجي الجامعة في دمشق كانوا يطمحون الى شغل وظائف عالية ، ولكن دوائر المفوضية العليا ما كانت لتتسع لجميع طلاب الوظيفة . وزاد في النقمة شعور العربي

بان فرنسا تقف حائلاً بينه وبين تحقيق امانيه .

وخلال الحرب العالمية الثانية وبعد هدنة ١٩٤٠ ، اجتهدت فرنسا في الابقاء على الوضع الراهن في المشرق لعلها ان عدم ابرام المعاهدتين في البرلمان الفرنسي قد زاد العرب نفوراً منها . اما بريطانيا العظمى فقد استمرت في نهجها الخاص جاعلة من فلسطين والاردن قاعدتين بريطانيتين . اما سوريا ، المتاخمة لتركيا المحايدة ، والموضوعة تحت انتداب فرنسي موال لحكومة المارشال بتان ، فقد بقيت بعيدة عن متناول مجهود بريطانيا الحربي . ولكن الحوادث تكفلت بوضع حد لهذه الحالة . ففي العام ١٩٤١ حصل انقلاب في العراق ، وتولت الحكم دكتاتورية غير موالية للانكليز . فلما كشر لها هؤلاء عن انيائهم استنجدت بالالمان ، فاستأذن هؤلاء حكومة فيشي في استخدام المطارات السورية ليتسنى لهم نجدة العراق ، فكان جواب حكومة فيشي الرفض . وتذرع البريطانيون و « فرنسا الحرة » بهذا الحادث لتبرير تدخلهم في سوريا واخضاعها لاشرافهم . وفي العام ١٩٤٢ اخضعت سوريا ولبنان لحكم بريطاني - فرنسي مشترك فرضه التدخل العسكري وما رافقه من التهاب الشعور الوطني وتضاؤل نفوذ فرنسا من جراء اقتتال قوات الجنرال دانتر وقوات فرنسا الحرة فيما بينها . وبعد ثلاث سنوات انتهى الحكم المشترك بجلاء الجيوش والادارة الفرنسية ، وتبوأ البلدان المشرقيان

١ اشار معظم الذين نشروا مذكراتهم عن الحرب الاخيرة ، ومنهم الجنرال كاترو ، الى ما ابداه البريطانيون من تحفظ حيال التدخل عسكرياً في المشرق . وقد ذكر كاترو انه لقي صعوبة كبيرة في اقتناعهم بان التدخل ان يكون له ذبول خطيرة .

مركزهما في صفوف الدول المستقلة . وبما يؤسف له هو ان لبنان وسوريا ظفرا باستقلالهما بمعزل عن فرنسا . وهكذا انتهى دورنا في هذه المنطقة نهاية محزنة .

بعد هذا الحدث رأينا سوريا ولبنان والعراق وشرق الاردن تسير في اتجاهات متعارضة . ولو انها استوحت فكرة « الاتحاد الاسلامي » لسلكت على الاقل سبلاً متوازية . وقد شجع خروج فرنسا من المشرق بريطانيا العظمى على بعث حلم لورانس ، فاوحت في العام ١٩٤٥ بحركة تهدف الى توحيد كلمة الشعوب العربية بما فيها الشعب المصري ، فكانت الجامعة العربية . بيد ان هذا المشروع قام على اسس غير عملية . وفي الوقت نفسه عقدت مؤتمرات اسلامية لاختيار خليفة جديد ، يكون عربياً هذه المرة ، ولكن مداولاتها لم تسفر عن نتيجة .

ولئن تكن سياسة الهاشمين ، تدعها انكسارا ، قد اخفقت في شبه الجزيرة العربية اخفاقها في بعث الخلافة العربية ، فقد استطاعت احداث الدولة العراقية والدولة الاردنية ، وربما قيض لها يوماً ان تجعل من سوريا نفسها مملكة هاشمية . والملاحظ ان انجال الحسين بن علي استمروا في سياسة الوحدة العربية التي رسمها والدهم وهي سياسة جعلت الاصطدام حتمياً بينهم وبين فاروق ملك مصر وابن سعود ملك المملكة العربية السعودية ، بالرغم من مظالم التفاهم والوفاق التي لا تخدع احداً .

غير ان توحيد الدول العربية في الشرق الادنى يصطدم بالخصومات التي تباعد بين عراجلها ، وبمطامعهم الشخصية المتنافرة ، ناهيك بتعدد العناصر والاديان والطوائف (هذه الظاهرة مشاهدة في سوريا على

الخصوص). فالى جانب الخلافات العنصرية او القومية تقوم
منازعات دينية وطائفية. وتحاول العروبة المعاصرة اقناع السواد
بان العرق واللغة العربية هما الرابطة التي تشد المسلمين بعضهم الى
بعض. بيد ان ما حدث عندما انقلبت الدعوة الى اعتناق الدين
الجديد رغبة في اباداة غير المؤمنين لا يزال طرياً في الاذهان.^١
وقد جاءت قضية اسرائيل، وما اثارته حول تدويل القدس،
مما يوازي في نظر المسلمين اخضاع هذه المدينة المقدسة لسيطرة
اليهود، فضلاً عن بعثات التبشير والرهبنات المسيحية - جاءت قضية
اسرائيل وذيولها تقدم اكثر من دليل على ان التطور في هذا الحقل
لا يزال سطحياً. ومع هذا ففكرة الدولة العلمانية آخذة بالنمو،
يشجعها الملك عبدالله (?)، وتلاقي تأييداً متزايداً في سوريا، وهي لا
بد فالحة اخيراً في استمالة السواد، فيسهل عندئذ صهر المسلمين والنصارى
على الاقل في بوتقة الوطن الواحد. بيد ان اتجاهات مصر والملك
عبد العزيز آل سعود تعرقل المساعي المبذولة لتحقيق الوحدة او
الاتحاد وحتى مجرد التفاهم الطويل العمر. ولا بد من الاشارة الى
ان سوريا هي الدولة العربية الوحيدة التي اعتمدت النظام الجمهوري
(يستثنى لبنان الذي يغلب عليه الطابع المسيحي)، وان باقي الدول العربية
في الشرق الادنى تخضع لنظام ملكي ثيوقراطي بالرغم من ترخيصها
بفكرة الدولة العلمانية. وقد يكرن هذا الاختلاف في انظمة الحكم

١ ليس في تاريخ الفترحات العربية ما يميز المؤلفين التعميم. ولئن يكن المقول
قد ركزوا متن الشطط في بعض الحالات، فالدعوة الى اعتناق الاسلام اتسمت على العموم
بطابع التسامح. - ا. العرب.

احد العوامل التي تباعد بين سوريا وهذه الدول .

بعد جلاء الانكليز والفرنسيين عن لبنان وسوريا انصرف البلدان ، في نطاق اللعبة البرلمانية ، الى تنظيم احوالهما سياسياً واقتصادياً . ويحرص لبنان على العيش بسلام مع جيرانه مع بقاءه عضواً في الجامعة العربية ، متقيداً بميثاقها ومقراراتها . ويبدو الموقف في سوريا ادق منه في لبنان من جراء تعدد العناصر والاديان . ويرغب العراق في ضم سوريا اليه او الانضمام اليها ليؤلفا معاً ما يسمونه « الهلال الخصيب » . ويرغب شرق الاردن في انشاء « سوريا الكبرى » المؤلفة منه ومن الجمهورية السورية بوضعها الراهن . ولكن سوريا نفسها لا يبدو عليها ، في الوقت الحاضر على الاقل ، انها ترحب بهذا المشروع او ذاك . فكلتا المشروعين من صنع الهاشميين ، وسوريا الجمهورية لا تريد الخضوع لسلطانهم .

ولا بد من القول ان فكرة الوطن - ومشايها فكرة الجمهورية - شقت طريقها في سوريا مستمدة مفهوماً ومقوماتها من التاريخ . ويبدو ان رسوخها قد جر الى مكافحة النزعات ذات الطابع المحلي . فقد سيق الى ساحات الاعداء الزعماء العلويون الذين يطالبون لمنطقتهم بالاستقلال الذاتي^١ .

في ٣٠ آذار ١٩٤٩ قلب الكولونيل حسني الزعيم الحكومة السورية ، وحل البرلمان ، وعلق الدستور ، واخضع البلاد لدكتاتورية عسكرية . وهكذا انهارت المؤسسات البرلمانية التي مهت بها سوريا في عهد

١ اعدم في سوريا زعيم علوي واحد وهو سامان المرشد الملقب بالرب بتهمة الكيد للاستقلال . - العرب .

الانتداب الفرنسي . وحسني بك ضابط قديم في الجيش التركي ، وقد خدم في القوات الخاصة التي انشأها الفرنسيون من عناصر سورية . وبعد الانقلاب ستمى نفسه مارشالاً ، واعتمد في حكم البلاد - وهو من يمتون بصلة الى الاكراد - على العلويين والعناصر غير العربية ، وفكر في التفاهم مع فرنسا وتركيا ، وحشد قوات على الحدود لتهديد العراق والاردن ، متحدياً بذلك الهاشميين ، وبالتالي انكسرت . وقد حاول حسني الزعيم بسلسلة من الاصلاحات وسم الدولة بطابع علماني ، مستوحى من الطابع التركي ، بحيث تصبح سوريا دولة عصرية تنصهر فيها الاقليات العنصرية والدينية انصهاراً حقيقياً ونهائياً . ويلوح ان الاتجاه الجديد الذي انطلقت فيه الدولة كان قميناً بانشاء دولة سورية - لبنانية على اساس فيدرالي . وربما كان بالامكان ادخال اسرائيل في الاتحاد . بيد ان المصاعب عرقلت جهود الانقلاب من جراء تضارب المصالح من داخلية وخارجية . يضاف الى هذا انه لم يكن لحسني الزعيم شخصية مصطفى كمال ومواهبه كي يتسنى له فرض منهجه . وما مضى خمسة اشهر حتى حصل انقلاب عسكري جديد ، فاعدمت سلطاته المارشال حسني بك وعادت الجمهورية السورية سيرتها الاولى ، ولكن السلطات الجديدة ابقت على بعض الاصلاحات التي حققتها الدكتاتورية العسكرية ^١ . وفي الظروف الحالية تتنازع سوريا ولبنان ، الذي يوقع خطاه

١ عمل المارشال حسني على تفوية الجيش السوري الذي كشفت الحرب مع اسرائيل عن افتقاره الى السلاح والتنظيم . وقد تبنت السلطات الجديدة تدابير في هذا الحقل .

على خطى جارته ، عوامل متضاربة ، فهما يحرصان ، من جهة ، على تأييد الاماني العربية ، ويحرصان ، من جهة اخرى ، على عدم اغضاب اميركا وتركيا . وتحاول سوريا ، بعد الانقلابات المتعاقبة ، ان تستعيد توازنها ، مع العلم ان عهد حسني الزعيم ، على قصر امده ، قد وضع اماني بلاده ومطامحها . فهي لا تريد الاندماج في العراق ولا في الاردن ، بل تريد البقاء مركز الحركات القومية في بلاد المشرق ، متخفية بذلك « العروبة » التي يقول بها الهاشميون . ويبدو ان التوازن الذي تفشده سوريا ليس سهل المنال ، بدليل الانقلاب الاخير الذي قام به الكولونيل اديب الشيشكلي ، متهماً « حزب الشعب » بالعمل ضد استقلال البلاد .

دول عربية اخرى

شرق الاردن والاردن

لا تعدو البلاد المسماة شرق الاردن كونها رقعة صغيرة من الارض ، قليلة السكان . وليس لهؤلاء طابع عنصري مميز ، ولم تعرف لهم حركة قومية خاصة . فشرق الاردن دولة اصطنعها الانكليز ليكافئوا عبدالله بن الحسين على مساهمته في الثورة العربية التي اعلنها والده .

نجد في شرق الاردن قبائل البدو الرحل والقرويين الذين يحبون حياة حضرية في المناطق المتاخمة لحوران ، ويلتقون واخوانهم السوريين في اكثر من ناحية . ونجد كذلك تجاراً وصناعاً معظمهم من اصل سوري او لبناني . وكان الملك عبدالله نفسه يقول ان عاصمته عمان كانت جزءاً من ولاية سورية . والواقع هو ان شرق الاردن كله كان ولا يزال ولاية سورية . ويقول سكانه انهم يعدون انفسهم مواطنين سوريين ابعدوا مؤقتاً الى مقاطعة نائية .

لقد سميت الوصاية البريطانية شرق الاردن بطابعها . فالموظفون والضباط العرب يتكلمون الانكليزية ، وفي المدارس الرسمية جعل تعليم هذه اللغة الزامياً . ويسود البلاد النظام والطمأنينة بفضل القوة العامة الممثلة بالجيش العربي ورجال الدرك . والجيش العربي مجهز بالوسائل الآلية الحديثة ، يقوده ضباط انكليز . اما ملاكاته وافراده

فمعظمهم من البدو . وثمة وحدات شركسية مؤلفة من أبناء السلط
ومن عناصر كانت تعمل في الوحدة الشركسية التي انشأها الفرنسيون .
اما وحدة الدرك فانها تضم رجالاً منخوبين ، عددهم محدود ، ويتولى
قيادتها اردنيون .

ان شرق الاردن مدين بوجوده الى ارادة بريطانيا العظمى الممثلة
بغلوب باشا ، والى شخصية الملك عبدالله بن الحسين . وقد ارتضى
العامل هذا الحل الموقوت على امل ان يتاح له تحقيق « سوريا
الكبرى » واسترداد عرش دمشق . ويبدو على الملك ، الذي يقدره
شعبه ويحترمه ، انه مصمم على انشاء دولة عصرية . ولئن تكن
« العروبة » في شرق الاردن مرعية الجانب ، فالملك يجهر بانه من انصار
علمانية الدولة ، مع العلم انه يعد نفسه حامياً للإيمان .

وقبل الحاق فلسطين العربية بشرق الاردن لم يكن لهذه الدولة
شأن يذكر ، ويمكن القول ان المصير الذي كان ينتظرها هو ذوبانها
في سوريا والمملكة العربية السعودية ، فتضم الاولى الجزء الشمالي
حتى معان ، وتضم السعودية الجزء الممتد من معان حتى العقبة على
البحر الاحمر . اما الآن فقد ازدادت الامور تعقداً ، اذ تجاهل الملك
عبدالله الجامعة العربية واقدم ، بالاشتراك مع اسرائيل ، كما تدل
القرائن ، على تجزئة فلسطين ، فاقتطع هو جزءاً واقتطعت اسرائيل
الجزء الآخر ، ثم تقاسما القدس . وبضم الجزء العربي الى شرق الاردن

١ عندما زار الشيخ العمري والقاضي بن حورا الجزايربان شرق الاردن لاحظا ان
الملك مصمم على انشاء دولة علمانية ، وانه ، الى جانب هذا ، متمسك باللغة العربية ، ويرى
ان العروبة قينة بتوحيد الدولة ابداً كان دينها .

خاضع الملك اراضي مملكته وعدد رعاياه ، واعطى شرق الاردن اسماً جديداً هو « الاردن » الذي لا يعدو كونه دولة صغيرة ، ولكنها دولة يحسب لها حساب .

حدث هذا والحرب في فلسطين مستعرة الاوار ، وقبل ان تتخذ الامم المتحدة مقرراتها المعروفة . واذا صرفنا النظر عن تجاهل الملك عبد الله وجود الجامعة العربية ووقع هذا التجاهل في العالم العربي ، نلاحظ ان ضم الجزء العربي من فلسطين لم يقابل بارتياح في بعض الاوساط الفلسطينية نفسها ، فكان مناطق القدس ورام الله ونابلس غير راضين عن صيرورتهم رعايا اردنيين . يضاف الى هذا ان القسمة التي حصلت لم تحل المعضلة الفلسطينية ، وان مشكلة اللاجئين تزيد القضية تعقداً .

واذا نظرنا الى المستقبل ، نلاحظ ان تطور الاردن قد انجلي — شأنه في ذلك شأن تطور الاقطار العربية المجاورة له — عن ظهور طبقة من المثقفين غير موالية للنظام الملكي بحالته الراهنة . لهذا يمكن التساؤل : أليكون لانجال الملك ، بعد موته ، السلطة والنفوذ اللازمان للحفاظ على الاردن بوضعه الحالي ، مع العلم انه بلد فقير ، ينمو اقتصادياً ويتطور بصعوبة ظاهرة ؟

وبجمل القول ان الملك عبد الله انتهز فرصة النزاع مع اسرائيل ليكبر رقعة مملكته ، واستطاع في الوقت نفسه ابقاء جيشه بمعزل عن النزاع . ولا ريب في ان مصر قد منيت بالهزيمة لان باقي الدول اعضاء الجامعة العربية اطلقت يد اسرائيل في العمل ، ولم تفعل شيئاً لتخفيف الضغط عن الجيش المصري . وحاول عبد الله ، والحرب قائمة ، التفاهم مع اسرائيل من جهة ، وجرّ سوريا الى تبني مشروع « سوريا

الكبرى» من جهة اخرى . وقد رفضت دمشق هذا المشروع كما رفضت مشروع « الهلال الحبيب » الذي يوحد بينها وبين العراق . ولو افلح الملك عبد الله في اعلان نفسه خليفة لكان له في العالم الاسلامي نفوذ عظيم ، ولكنه لم يفلح ، ففقع بان يكون عاهلاً لدولة صغيرة محدودة الموارد . وفي الظروف الراهنة يعيش الاردن في شبه عزلة بين الدول العربية التي لم تعتقر له موقفه في النزاع الفلسطيني . وهو يعتمد في معيشتة على ما تقدمه اليه بريطانيا من مساعدات . ولو لم تكن الاحقاد متأصلة بين العناصر والطوائف لامكن القول ان تفاهماً بين الاردن واسرائيل قمين بان يحل المشكلة . واذا حصل هذا التفاهم فمن المشكوك فيه ان يعمر طويلاً . لهذا يجب ان نتوقع زوال احدي هاتين الدولتين يوماً من الايام . فالاردن يمكن ان يدمج في سوريا ، ويمكن اسرائيل ولبنان ، من جهتهما ، ان يقترحا انشاء اتحاد فيديرالي متوسطي . ومهما يكن من امر فالتكهن بمثل هذه الامور سابق لاوانه ، مع العلم ان هذه القضايا المحلية قد طغى عليها النزاع الروسي - الاميركي ، ويلوح ان مقدرات دول المشرق بانت رهناً بمقررات العملاقين المتنافسين .

وحتى العام ١٩٥٠ بقي الملك عبد الله زعيماً له شأنه بصفة كونه اقدر الهاشميين على الاستمرار في سياسة الوحدة العربية التي وضع أسسها والده الحسين ، فضلاً عن كونه قائد الحركة المسماة « العروبة » . وقد كان الاردن يضيق بشخصيته الفذة . بيد ان ضؤولة موارد مملكته واعتماده على المساعدة البريطانية قد حداً من نفوذه في العالم الاسلامي .

وفي العام ١٩٥١ اغتيل في عمان رياض الصلح رجل الدولة

اللباني، ثم اغتيل الملك عبدالله في مسجد عمر بالقدس. ويبدو ان الحادثين قد سدا ضربة شديدة الى النفوذ البريطاني في الشرق الادنى لان الضحيتين كانتا مؤيدتين لمشروع سوريا الكبرى. وقد اغتيل الملك في وقت كانت نقمة الجامعة عليه قد بلغت الذروة لانه هادن اسرائيل وضم الى مملكته الجزء العربي من فلسطين. ولا شك في ان توارى الملك حدث يتجاوز الاردن. فقد كان عبدالله بن الحسين شخصية لامعة قوية في الشرق عموماً والشرق العربي على الاخص. كان عنصراً مجدداً في نطاق الاعتدال. وبعد وفاته، واجه الاردن مشكلة دقيقة هي اختيار العاهل الجديد، لان ولي عهده طلال عاجز عقلياً - كما يقال - عن الاضطلاع بالعبء. الا ان هذا لم يحل دون تربيته على العرش بعد استبعاد شقيقه الامير نايف. ومما يمكن من امر فالاردن يبدو، الآن، اضعف من ان يتصدى لتحقيق مشروع «سوريا الكبرى» لمصلحته هو. اما دمشق التي قويت شوكتها فانها تبدو اليوم اقدر منها بالامس على ضم الاردن الى سوريا. ويمكن التأكيد ان الارتباك السياسي والعسكري قد ازداد في المشرق بعد مصرع الملك عبدالله.

العربية السعودية

انشأ عبد العزيز آل سعود في شبه الجزيرة (١٩٢٥) دولة ذات نظام ملكي ثيوقراطي، وذات نزعة عصرية الى حد، في حين كانت تركيا تسلك طريق العلمانية، ومصر تعتمد حلاً وسطاً. نشأت الحركة الودابية، في القرن الثامن عشر، انتفاضة في وجه

الموجة الفلسفية المتصاعدة في دنيا الاسلام . اما مؤسس الحركة ، عبد الوهاب ، فقد كان شديد الاستمسك بتعاليم ابن حنبل . الا انه ذهب في التزم الى اقصى الحدود . ويقول الوهابيون ان شارحي القرآن قد افسدوا العقيدة بتفاسيرهم ، وان تعاليم النبي قد شوهت بهوامش غير صالحة . وقد زدب عبد الوهاب نفسه لاجراج بلاده من دياجير الاوهام والحزعبات ، وعمل في الوقت نفسه على اعادة الايمان الى شكله البدائي البسيط . وكانت تعاليمه سبباً في انتفاض الوهابيين في العام ١٨٠٠ على العثمانيين ، فاستولوا على مكة والمدينة ، وقلبوا الحجر الاسود وامتدت ايديهم بالتخريب الى قبر الرسول . ولما عجز السلطان عن اخضاعهم عهد بهـذه المهمة الى خديوي مصر محمد علي الذي تم له اخضاعهم في العام ١٨١٨ . كانت العلاقات طيبة بين الوهابيين والشريف حسين عندما شهر الشريف السلاح في وجه الاتراك (١٩١٦) . الا ان هذا لم يمنع وجمال ابن سعود من تموين المدينة بعد ان حاصرها العرب وضيقوا على حاميتها التركية الخناق .

وفي العام ١٩٢٠ اثار الوهابيون قبائل العربية الوسطى ضد الانكليز ، حجة الشريف ، وذلك بدافع من حقدهم التقليدي على السنيين . وقد عرفت انكلترا منذ ذاك كيف تداريهم ، فاعترف ملك المملكة المتحدة (انكلترا) بامير نجد سلطاناً عليها ، وتقيدت لندن بالسياسة العربية التي رسم خطوطها اللورد كورزون في العام ١٩١٩ ، وكان عامئذ نائب الملك في الهند ، ومثل مصالحها السرجون فيلبي لدى ابن سعود السلطان الوهابي ، كما مثل ويلسون ولورنس مصالحها لدى الشريف وانجالة . فلما ضم ابن سعود الحجاز الى نجد لم تتأثر مصالح

بريطانيا العظمى بهذا الحدث .

وبعد ١٩٢٥ تحول الوهابيون عن الهاشميين وهاجموا اليمن ، فواجههم إمامها بمقاومة ضارية اضطرتهم للنكوص على أعقابهم . وقد طلقوا منذ ذلك فكرة التوسع بقوة السلاح ، مع العلم ان تعصبهم ضد كل ما هو غير وهابي قد خفت حدته مع الايام . ولما جنح ابن سعود الى الاخذ بأسباب الرقي ، انبرى له غلاة المحافظين من اتباعه واخذوا عليه اعادة موسم الحج واستثمار هذا المورد لمصلحته ، متناسياً ان الوهابية تحارب البدع ولا تسمح بزيارة اضرحة الاولياء ، كما اخذوا عليه تخطي الحدود التي رسمها عبد الوهاب والعمل على اعطاء الدولة طابعاً عصرياً . وقد كافح ابن سعود هذه الحركة الرجعية بعنف وتم له اخضاع « المتمردين » . بيد انه لم يتنبه للتعالم الوهابية ، فبقي بعيداً عن السنة ، ولم يأخذ من الغرب الا ما هو ضروري لنمو البلاد وتطورها . اما موقف العالم الاسلامي منه فقد بقي هو اياه ، فما نادى به ، خليفة المسلمين ، لان الوهابية كانت ولا تزال هرطقة تجب محاربتها .

الا ان العود بالايمان الى سذاجته البدائية واقامة الدولة على اساس « الشريعة » ، الى جانب الترحيب بالثقافة التكنيكية الحديثة ، قد اوجدا في العالم الاسلامي ما تصح تسميته « النايو وهابية » (الحركة الوهابية الجديدة) ، وهي حركة دينية في الاصل ، ولكنها تمتد الى الحقول الثقافية والسياسية والاجتماعية . وقد ذهب محمد اسعد بك في كتابه « الله اكبر » الى ان نظام ابن سعود يفضل نظام مصطفى كمال ، وانه قادر ، بالتالي ، على بعث ايجاد الاسلام بعد ازالة ما علق به على مرّ الاعوام . ويمكن القول ان الحركة الوهابية

الجديدة قد وجدت تربة صالحة في افريقيا الفرنسية .

يقول « حسن » في كتابه : « كيف تهلك الجزائر الفرنسية » :
 « نلاحظ ، مع الاسف ، ان الدين ، كما مارسه الانصار ، لا وجود له
 في اي بلد اسلامي . وقد استطاعت الحركة الوهابية الدنو منه بعض
 الشيء عندما كانت منطوية على نفسها في صحراء نجد ، ولكن ما ان
 اخرجتها انكلترا من مهدا البدائي حتى اضطرت ، من اجل الحفاظ
 على كيانها ، الى تنازلات خطيرة لمصلحة روح العصر ومختلف المذاهب
 الاسلامية . ولئن تكن الحركة الوهابية قد نجحت في تثبيت دعائمها
 سياسياً بفضل مرونة الملك عبد العزيز آل سعود ، فجمودها كحركة
 مذهبية واقع لا جدال فيه . ذلك بان ملك نجد والحجاز يخشى نزعات
 الاسلام القديمة ، ويعتقد ان اعطاء العربية السعودية شكل دولة عصرية
 هو اضمن لبقائها . »

هذا ما كتبه مسلم بعيد النظر في العام ١٩٣٨ . ولا شك في
 انه لم يظلم الوهابية عندما قال انها لم تحقق اي تقدم بصفة كونها
 حركة مذهبية ، فالسنوسية تبدو من هذه الناحية اقرب الى روحية
 الاسلام . وامل بقاء ابن سعود بعيداً عن مركز الصدارة في العالم
 الاسلامي مرده الى هذا الجمود الذي فضحه الكاتب المغربي « حسن » .
 يضاف الى هذا ان الرأي العام العربي يعيب على ملك الحجاز ونجد
 تقاعسه في النزاع مع اسرائيل ومواقفه المائعة في الجامعة العربية .
 اضطر الملك عبد العزيز الى ايثار صداقة اميركا على صداقة
 انكلترا عندما قرر اعطاء بلاده طابع الدولة العصرية . وقد رأينا
 الاميركيين ، بمد الحرب العالمية الثانية التي لزم فيها ابن سعود
 الحيدة المطلقة ، يظفرون منه بامتيازات البترول ويستملكون اراني

حاجة لإنشاء المطارات . ذلك بأن رفقة السلاح بين الانكلوسكسون لم تمنع اختلافهم حول البترول الذي ينبع بين الخليج الفارسي والبحر الأحمر . وقد كانت القلبة الأمير كين ، واهت ايران وشبه الجزيرة العربية جزءاً من الجهاز الدفاعي الأميركي الذي سيتف في وجه المطامع السوفياتية .

يتضح بما أسلفنا ذكره ان العربية السعودية دولة ثيرقراطية ترتكز دعائماً على « الشريعة » ، وان الاردن يرتدي طابع الدولة العامازية مع بقاء الاسلام ديناً للدولة ، وان الدولة الاولى خاضعة اقتصادياً للسيطرة الاميركية ، اما الاردن فيخضع للسيطرة البريطانية . ويتضح كذلك ان الملك عبد العزيز آل سعود ، مع ما يتمتع به من نفوذ نسبي في العالم الاسلامي ، لم يوفق الى الخروج من عزلته ، فهو قد خسر بعض معالم قوته بالحد من موجة النعصب الوهابية ، وفقد بعض نفوذه عندما منح الاجانب امتيازات في بلاده . وفي اطار التطور الاسلامي العام تقدم الينا العربية السعودية احد الشواهد على صعوبة التوفيق بين الاستمسك بالدين ، روحاً وحرفاً ، وبين مجارة التيارات العصرية .

العراق والمائة الكردية

منذ العام ١٩٢٠ تولى الملك فيصل الاول ادارة العراق بحذق ومهارة . واشرفت انكسرترا على سير الامور في هذه المملكة الناشئة . وقد واجهت فيصلاً مصاعب ذات بال نجم بعضها عن حركات الاكراد في شمال البلاد ، ونجم البعض الآخر عن مطالبة تركيا

بولاية الموصل وادعائها ملكية حقول البترول (وهي حقول كانت في الاصل من نصيب فرنسا ، فتنازلت لبريطانيا العظمى عن حصة الاسد) ، ناهيك بما يقوم بين الشيعة والسنة في العراق من عوامل التفرقة والنزاع ، وبالعداء التقليدي الذي يباعد بين العرب والاكراذ . وفي العام ١٩٣٢ حملت انكلترا عصبة الامم على الاعتراف باستقلال العراق . وفي ايلول ١٩٣٣ توفي الملك فيصل الاول ، ففقد العرب ، بل فقدت حركة التحرر في العالم العربي قائداً حكيماً ، بصيراً بالامور . وفي عهد نجله غازي الاول قامت في البلاد اضطرابات خطيرة لم تكن الاصابع الاجنبية غريبة عنها . وعقب ذلك الانقلاب العسكري الذي اخضع العراق لديكتاتورية الجنرال بكر صدقي . ثم انزاح عن صدره كابوس هذه الدكتاتورية بمقتل الجنرال . وكان الملك الشاب قد ذهب قبل عامين ضحية حادث سيارة (نيسان ١٩٣٤) فنودي بنجله فيصل الثاني ملكاً ، وعهد بالوصاية الى خال الملك الطفل الامير عبد الاله نجل الملك علي بن الحسين . وفي العام ١٩٤١ خيّل الى رئيس الوزارة العراقية رشيد عالي الكيلاني ان الوقت قد حان لفصم العرى التي تشد بلادها الى بريطانيا العظمى ، واعتمد في الحركة التي قام بها على المانيا . فكان لحركته ذيول خطيرة في سوريا ، كما تقدم معنا ، واسفرت عن توطد النفوذ البريطاني في العراق . وقد بذلت منذ ذاك مساعٍ للتقريب بين بغداد وعواصم باقي الدول العربية ، ولاسيما دمشق ، ولكن هذه المساعي لم تؤت ثمارها المرجوة . وبما يجدر ذكره ان المسألة الكردية تمثل دوراً رئيسياً في حياة العراق السياسية وتتحكم بمقدراته . ولئن كنا نعرض لهذه المسألة هنا فلأنها تقف حجرة عثرة في طريق تطور العراق ، وبالتالي ، تطور

الشرق الأدنى . ذلك انه اذا كان يباعد بين البلاد العراقية وايران اختلاف المثاليات وتضارب المصالح الاقتصادية ، وبينها وبين تركيا طابعها العربي ، وبينها وبين العراق بقاع نصف صحراوية تعرقل تحقيق « الهلال الحبيب » ، ففي تركيا وايران والعراق وسوريا نفسها تعيش جماعات من الاكراد ، ويؤلف الفرات ودجلة المنفذ الذي يجعل البحر في متناول كردستان .

وعند درسنا الوضع في تركيا ألمعنا الى انبعاث الحركة الكردية عقيب الحرب العالمية الاولى . وقد عادت المطامح الكردية الى الظهور في اواخر العام ١٩٤٠ ، مذكرة الرأي العام العالمي بوجود شعب كردي خاضع لسيطرة اربع دول . وفي ٣٠ آب ١٩٤٣ تسامت الدول الحليفة مذكرة من زعماء الحركة الكردية في بيروت وهم شخصيات ذات وزن تتعهد نهضة الشعب الكردي فكرياً وسياسياً . وقد جاء في المذكرة ما معناه :

ان كردستان التي تؤلف كياناً جغرافياً واقتصادياً وقومياً مستوفياً شروط الانضمام مدعوة لتمثيل دور هام في الشرق الأدنى . لهذا ينبغي للدول الكبرى ان تتيح للعصر الكردي ، بالنظر الى اهمية موقع بلاده الاستراتيجي ، ان يؤلف مجتمعاً مستقلاً ، ومن ثم عاملاً سياسياً مستقراً بدلاً من تركه مبعثراً هنا وهناك تنقاذفه المصالح المتضاربة كما هي الحال في الوقت الحاضر . ولا ريب في ان التسليم بعجز الانراك والارانيين والعراقيين عن تذويب الامة الكردية ، ينال بعض الشيء من هيبتهم ، ولكن هذه الامم تريح كثيراً ان هي سلكت الطريق المؤدية الى تحويل القلة التي تضايقها الى جبار يمكن الاطمئنان الى جواره .

وتكرر المذكرة المطالب التي قدمها الاكراد الى مؤتمر « سيفر » منذ عشرين عاماً . وفي ٢٦ تشرين الثاني ١٩٤٥ رفعت « العصبة الكردية » مذكرة جديدة الى الدول العظمى ضمنيتها دفاعاً حاراً عن

الحركة الكردية المتهمة «بإثارة الفلاقل والاضطرابات في بعض البلدان ، منع انها تهدف الى ازالة وضع غير عادل كان منذ قرن ونصف القرن ولا يزال مصدر متاعب لا حصر لها لاكثر من دولة من دول الشرق الاوسط .»

وفي ١٠ آذار ١٩٤٧ بعثت العصبة الكردية مذكرة الى وزراء خارجية الدول الاربع المجتمعين في موسكو جاء فيها ما نصه :

اذا كانت بعض الاعتبارات الدولية تحول دون قيام كردستان مستقلة في الحال - وهذا ممكن ويجب ان يتم - فلتدخل الدول العظمى على الافل لتحسين وضع الاكراد وذلك بان 'يتترف لهم بالاستقلال النوعي في نطاق الدول التي تضمهم . وانا نحبز لانفسنا ان نلقت سعادتهم الى ان موقف هذه الدول المنافي للعادلة والحق ، بالاضافة الى لامبالاة الدول العظمى ، من شأنه ان يسم "افكار الشيبة الكردية المتحمسة ويزعزع ايمانها بالحق والعدالة . انا نرى من اقدس واجباتنا التشديد على هذه الناحية لان الشيبة الكردية التي جبت بالالم وجمعتها المظالم شديدة الحساسية قد تنجح يوماً الى الفوضوية بدافع من اليأس . وان هي فعلت فاللوم لا يقع عليها .

وفي التاسع من كانون الاول ١٩٤٥ 'طلب الى الامم المتحدة درج المسألة الكردية في جدول اعمال الجمعية العمومية . ونشرت في الوقت نفسه مذكرة ضمنيتها العصبة الكردية اهم الحوادث التي وقعت بين ١٩٢٠ و ١٩٤٨ ، ولا سيما حوادث العراق التي سببتها حركة الملا مصطفى البرزاني ، وحوادث ايران التي سببها قيام الجمهورية الكردية في ماها باد . وفي ٣٠ تموز ١٩٤٧ تلقى رئيس لجنة حقوق الانسان مذكرة من الحزب الديمقراطي الكردي ، ولكن اللجنة رفضت النظر في المذكرة . وفي كانون الثاني ١٩٤٩ تلقت من الحزب نفسه كتاباً جاء فيه ما نصه : « لم يبق امام الاكراد الا سلوك احد سبيلين : فاما ان يصبحوا ايرانيين في ايران واتراكاً في تركيا

وعرباً في العراق، او ان يبادوا كما ابعد الارمن والاشوريون من قبل». وهكذا ينهض الاكراد، بعد العرب، للمطالبة بوطن ولابراز خصائصهم القرمية. ويلاحظ من الناحية الاسلامية ان الاكراد، من سنين وشيعيين، متضامنون في وجه خصوم حركتهم. وهذا الواقع يشكل عاملاً له شأنه في تطور الاسلام المعاصر.

لقد استنجد الاكراد بالامم المتحدة على غير طائل، لان انكسارهم تشأ اغضاب العرب، ولم تشأ اميركا اغضاب تركيا وايران اللتين لا تنظران بارتياح الى تلبية مطالب هذه الاقلية العنصرية، مع العلم ان الاكراد، سنين كانوا ام شيعيين، مثالية قومية تسود فيها فكرة الوطن قبل الدين نفسه، وهذا شاهد آخر على نمو فكرة الوطن في بقعة من العالم الاسلامي تأثر الى حد ما باتجاهات الاسلام الاسيوي.

يمكن الاكراد، في حال اخفاقهم نهائياً في استمالة الاميركيين، ان يعتمدوا على عطف الروس. ولا ننسى ان الطريق التي سيسلكها الجيش الاحمر لبلوغ مناطق البترول في الموصل والخليج الفارسي تمر في كردستان، وان الاكراد هم على العموم معادون للايرانيين والعراقيين والاتراك، وان وادي الفرات ودجلة وهرات جبال ارارات في ارمينيا تؤدي الى ديار بكر والمرسل وبغداد. لهذا عرضنا للمسألة الكردية عند درسنا الوضع في العراق، مع العلم ان هذه المسألة تلابس الوضع العام في الشرق الاوسط وآسيا الوسطى. ذلك ان الشعب الكردي يشكل، عند الاقتضاء، دعامة قوية للسياسة السوفياتية. وقد ادرك كليمنصو وبعثة بريمن هذه الحقيقة والحرب العالمية مستعرة الاوار. ولا شك في ان تحقيق وحدة الامة الكردية

على يد الاتحاد السوفياتي سيكون له اثره البارز في تحديد مصائر بلدان الشرق الاوسط وآسيا الوسطى .

ان العروبة ، التي تتلقى الوحي من انكلترا والتي يوجهها الماشيون ، تبدو اليوم وكأن الشيخوخة قد ادركتها . الا انها ما تزال مصدر قوة العنصر العربي الذي يحتفظ بكبريائه ويطمح دائماً الى السيطرة . وقد اجتذب العالمان العربي والاسلامي الاميركيين ، ففرضوا سياستهم وسيطرتهم الاقتصادية ، غير ملتفتين الى القيم المحلية من روحية ودينية . وفي آسيا اليوم تيارات تجاوزت الاشكال الفيدرالية لتتشد الوحدة بل اللحمة بين الشعوب بقطع النظر عن الاديان . فاذا اغفل مسلمو الغرب عموماً والمسلمون العرب على الاخص شأن هذه التيارات القوية ، فقد يأتي يوم تصطدم فيه عجلة تطورهم بما يؤخر سيرها . وبما لا شك فيه ان المسألة الكردية وملابساتها ستمثل دورها في الاحداث الاسلامية المقبلة .

ونعود الى الوضع في العراق من حيث هو دولة اسلامية في الشرق العربي ...

في العام ١٩٥٠ اقترحت حكومة بغداد ، مسابقةً منها للرأي العام ، على حكومة لندن ، تعديل معاهدة ١٩٣٠ . وكان صالح جبر والمستر بيغن قد وقعا في بورتسموث (١٩٤٨) على معاهدة جديدة ، الا ان البرلمان العراقي رفضها . وفي خريف ١٩٥١ زار نوري باشا السعيد العاصمة البريطانية ودخل مع حكومة صاحب الجلالة في مفاوضات اسفرت عن عقد اتفاق سياسي - اقتصادي .

وفي العراق اليوم نزعة الى تأميم البترول ، على نحو ما جرى في ايران ، ويطمح الشعب العراقي الى مثل ما يطمح اليه الشعبان

المصري والایراني - ولكن بشيء من الاعتدال - الى استكمال معالم
الاستقلال والسيادة .

فيتضح مما تقدم ان حرب البترول مستعرة الاوار في الشرقين
الايوسط والادنى ، وان بريطانيا العظمى تواجه الدول العربية منفردة
بعد ان اقصدت فرنسا عن الموصل اولاً ثم اضطرت للجلاء عن
سوريا ولبنان . ولئن تكن العربية السعودية ذات البترول الذي
يصب في ميناء قرب صيدا لا تشاطر باقي الدول العربية وايران
تحفظها واحتراسها ، ولا تقيم ، بالتالي ، العراقيل في طريق استثمار
بترولها ، فمرد ذلك ، ولا ريب ، الى حرص الاميركيين على تأمين
دخل كاف للملك ابن سعود .

الجامعة العربية ومسألة اسرائيل

« الى جانب الاسلام الديني يقوم اسلام سياسي تتضح معالمه يوماً بعد يوم^١. »

فمنذ ١٩١٨ طرأ تحول اساسي على حياة الشعوب الاسلامية في الحقل الاقتصادي . يقول بليغران في كتابه « الاسلام في العالم » ما نصه :

« اننا نرى شعوباً ، كانت في الامس تحصر نشاطها في نطاق تعاليم القرآن والسنة ، وتعيش متفلة في وجه التيارات الاجنبية ، تنهافت اليوم على نتاج النكر الاوروبي مستمدة منه الطاقة على تحقيق مطامحها ، او على الاقل القدرة على الخروج من طور الخمول والجمود الذي طال امده . »

وقد كانت تركيا السابقة الى التخلي عن المؤسسات الدينية والسياسية التي كانت قوام الامبراطورية العثمانية منذ قرون . واعتمد زعمائها النزعة القومية والشعور الوطني في عملهم الاصلاحى الجبار . وما لبثت ايران وافغانستان ان تأثرتا خطى تركيا في هذا المضمار . وكان لهذه الحركة التقدمية صداها في العالم الاسلامي ،

١ بليغران في : « الاسلام في العالم » .

فانبرت شعوبه ، مستقلة كانت او خاضعة للسيطرة الاجنبية ، تفصح عن امانيتها ومصالحها ، محاولة تحقيقها بما تملك من وسائل .
وهنا يجوز لنا التساؤل : ألا يخسر الدين ، في جوهره ، ما تكسبه النزعة القومية ؟ يقول بليغران : « النزعة القومية في الشرق هي هدية اوروبا الى الشرقيين . وقد فعلت فيهم فعل الوباء الذي لا يوفر احداً . » ويمكن القول ان الشعوب الاسلامية كافة لم تسلم من هذا « الوباء » . وسنرى في فصل لاحق ما كان رد فعل الاسلام الاسيوي في هذا الحقل . وفي حوض المتوسط بدا على بعض الشعوب ، كالشعب المصري مثلاً ، انه يحرص على ان يتم تطوره السياسي في نطاق القرآن والتقاليد والحفاظ على اللغة العربية ، لغة القرآن . اما في اسيا فثمة نزعة قوية الى ترجمة القرآن والتنكير للغة العربية التي انزل بها . وهذا التطور في الحركة الاسلامية العامة يشكل الثغرة الاولى في ماض كان يؤلف حتى الامس القريب كلاً خيئلاً الى الباحثين انه غير قابل التجزئة .

يقول بليغران : « ان العالم الاسلامي ينزلق ببطء ولكن باستمرار نحو تبني المفاهيم الحديثة ، اي المفاهيم الغربية للاحوال الشخصية . ففي كل مكان نزعة صريحة الى الغاء تعدد الزوجات ، والى جعل الطلاق حقاً مشتركاً ، لا يعترف به للرجل وحده . وفي كل مكان نزعة الى تبني الافكار الاوروبية واقتباس العادات التي لا تتعارض وجوهر الدين . »

ويلاحظ بليغران من جهة اخرى ان اوروبا لم تتأثر فكرياً بالحركة الاسلامية : « اننا نجد في مدن كبرى كلندن وبرلين جماعات صغيرة من الاوروبيين الذين اعتنقوا الاسلام ، ولكن هذا الواقع

ليس اكثر من ظاهرة عادية مشاهدة في الحياة الدينية المعاصرة .
وفي فرنسا جماعات من العمال المسلمين الذين وفدوا اليها من افريقيا
الشمالية ، والمسائل التي يثيرها وجودهم يغلب عليها الطابع الاجتماعي
بالدرجة الاولى . وفي اميركا جماعات اسلامية مؤلفة من المهاجرين
الذين ليس لهم طابع مميز ولا تجمع بينهم رابطة .

ويرى بلييغران ان الفكر الغربي الحديث لم يتأثر بالفلسفة
الاسلامية : « عندما اقبل رجال الفكر الاوروبيون بين ١٩٢١ و
١٩٣٠ على ورود مناهل الفكر الشرقي خيل الى المراقبين ان
الاسلام ، ديناً وحركة ، سيلقي بثقله في احدى كفتي الميزان ، ولكن
ذلك الاقبال لم ينجم عنه سوى ازدياد الميل الى التوسع في درس
التاريخ الاسلامي وتعريف الغرب الى الحركة الاسلامية في مدها
وجزرها . »

ومع هذا ففي العالم ثلاثئة مليون مسلم يجمع بينهم ايمان هو
وليد الفكر العربي . وقد اضحى الاسلام السياسي احدى الضرورات
بعد ظهور النزعة القومية . ولكن انصار التطور والتجديد يواجهون
في كل مكان ، في آسيا البعيدة وحوض البحر المتوسط ، حركة
تهدف الى العود بالايمان الى بساطته البدائية ، وتسهر على سلامة
التقاليد الموروثة . وفي الوقت الذي يشهد الشرق الاقصى ذوبان
العناصر والاديان في الدولة الواحدة والموحدة (بكسر الدال) ،
يحاول رجال الدين في حوض المتوسط بالاشتراك مع التقدميين
الابقاء على تفوق العنصر العربي واللغة العربية في العالم الاسلامي .
انهم مقتنعون بضرورة التوفيق بين تنشئتهم الدينية وبين الحضارة
العربية ، على ان يتحقق ذلك في نطاق الاسلام والعروبة . ومن

هذا الافتناع انبثقت فكرة الجامعة العربية .

لقد كانت حركة الوحدة الاسلامية حركة محض دينية . وهل يمكن تصور وجود اسلام موحد لا يكون على رأسه خليفة يضطلع باعباء الزعامتين الزمنية والدينية ؟ في العام ١٩٢٢ قامت في استمبول خلافة « فيدرالية » الطابع الى حد ، وذلك عندما خلع البرلمان التركي السلطان محمد السادس وانتخب عبد المجيد خليفة للمسلمين ، متجاهلاً حقه الوراثي بهذا المركز المرموق . بيد ان هذه التجربة لم تعمر طويلاً ، اذ الغيت الخلافة في ٥ آذار ١٩٢٤ بقرار اصدره المجلس الوطني الكبير .

ليس للاسلام الموحد في ايامنا رئيس ديني . وقد حاولت المؤتمرات الاسلامية التي عقدت بين ١٩٢٦ و ١٩٣٧ ، وعددها اربعة ، ان تجد حلاً لمسألة الخلافة ، ولكنها لم توفق الى اختيار الزعيم الروحي . وفي احد هذه المؤتمرات (المؤتمر الذي عقد في القدس ١٩٣١) تبلورت حركة الوحدة العربية التي تناصب الغرب العداء في هذه الايام . ويمكن القول ان المؤتمر المذكور هو الذي عجل بظهور الاسلام السياسي عملاً بتوصيات الشخصيات الدينية نفسها . وهكذا تركت حركة الوحدة الاسلامية مكانها لحركة الوحدة العربية ، وهي حركة ذات طابع عنصري او قومي تهدف الى توحيد كلمة الاقطار التي تقطنها ، لا الشعوب العربية اللسان فحسب ، بل الشعوب العربية العنصر . ولا ريب في ان الوحدة المثلى هي التي تتجسد في قيام امبراطورية عربية دستورية ، فيدرالية عند الاقتضاء ، على رأسها امير عربي ، ولكن الحوادث والتنافس بين ملوك العرب جعلت تحقيق هذه الامنية متعذراً .

ومهما يكن من امر ، فقد نهض الشرق الأدنى والعالم العربي للمطالبة بالاستقلال التام الاجز ، متثرين بالتيارات التي رافقت الحرب العالمية الاولى وبالنزعات والمبادئ التي ظهرت عقب انتهاء الحرب ، ولا سيما مبادئ ويلسن الاربعة عشر . ولئن يكن زغلول باشا قد تسليح بالشجاعة الكافية لمواجهة الانكليز بتصميم مصر على استخلاص استقلالها ، فدول آسيا الصغرى قد آثرت لزوم جانب الحكمة والتروي ، منتظرة سنوح الفرصة للافصاح عن رغبتها في التحرر . وسنحت هذه الفرصة عندما شرعت الحركة الصهيونية تنحفز لغزو فلسطين « سلمياً » . وقد استغل المسلمون ، لمناسبة اليهود العداء ، الحوادث التي كان « حائط المبكى » في القدس مسرحاً لها . وهذا الحائط هو احدى بقايا هيكل سليمان ، الذي اقام العرب على انقاضه المسجد الاقصى او مسجد عمر . واختار المسلمون مدينة القدس نفسها لعقد مؤتمر ١٩٣٦ ، وقد اتخذ المؤتمر المقررات الآتية :

- تقوية الاسلام بانشاء جامعة عربية في بيت المقدس .
- توسيع نطاق الدعاوة للاسلام واللغة العربية في ديار الاسلام .
- تسليم شؤون المسلمين الروحية في كل قطر اسلامي الى شخصيات قادرة على الاضطلاع بالمهمة .
- اصدار صحف ومجلات تكون مهمتها نشر الثقافة العربية .
- تأليف لجنة دائمة .

كانت هذه المقررات انتفاضة عربية في وجه تركيا العلمانية التي اقدمت على ترجمة القرآن واغفلت شأن اللغة العربية . ولم يكن الغرض من هذا النضال اظهار قوة حركة الوحدة العربية الرامية

الى بعث الامبراطورية العربية فحسب ، بل كان الغرض الرئيسي منه تنظيم الدفاع الذاتي واتخاذ التدابير الكفيلة بانماء الثقافة العربية وحمايتها . وقد كان لمقررات المؤتمر صداها في افريقيا الشمالية حيث وجد العلماء (رجال الدين) من شجعهم على تبني المفهوم الجديد للاسلام : الاسلام الديني والسياسي الذي ينبغي للعروبة ان تحله محله اللائق في الدولة ، ملكية كانت او ذات نظام جمهوري ، ما دام بعث الخلافة يصطدم بعقبات غير قابلة للتذليل .

تقدم معنا ان بريطانيا العظمى شجعت على قيام دول عربية جديدة في الشرق الادنى ، على امل ان يخضع الهاشميون هذه الدول لسيطرتهم ولاشرافهم . ولئن تكن الاحداث الدولية والمحلية قد حالت دون اتحاد هذه الدول مؤلفة دولة فيدرالية ، فقد كان من نتائجها تبلور الشعور القومي العربي الذي رستخ في الازدهان فكرة الامة الواحدة على تعدد الاوطان ، بما يشكل مرحلة عظيمة الاهمية في تطور الاسلام ، ويتجاوب واماني قادة الرأي في حوض المتوسط الشرقي .

وفي ٢٢ آذار ١٩٤٥ اجتمع في القاهرة ممثلو مصر والعربية السعودية وسوريا ولبنان وشرق الاردن واليمن والعراق ، ووقعوا على ميثاق اتحاد الدول العربية (الجامعة العربية) محققين بذلك الحلم الذي راود نخيلة فيصل الاول وشكيب ارسلان وسواهما . وقد كان اشتداد ساعد الحركة الصهيونية في فلسطين احد العوامل التي عجلت بعقد الميثاق . اما العامل الرئيسي فهو ، ولا ريب ، شعور الدول العربية بان كيانهما بات مهدداً بعد انقسام العالم معسكرين ، وان الحفاظ على هذا الكيان لا يكون الا باتحادها وتضامنها .

اما منهاج دول الميثاق فقد اجمله ناطق رسمي فيما يلي :

— الحفاظ على استقلال الدول اعضاء الجامعة .

— العناية بالقضايا ذات العلاقة بالاقطار العربية وبصالح هذه الاقطار .

وجاء في احد ملاحق الميثاق ان مجلس الجامعة لا يسعه الاهتمام

باماني الاقطار العربية غير المنظمة الى الجامعة والعمل على تحقيقها .

وهكذا يتضح لنا ان الميثاق هو اكثر من اداة دفاعية ، انه

وسيلة للتوسع تهدف الى تحقيق الوحدة العربية والمطامح العربية .

وقد رجحت في هذه المؤسسة كفة مصر بعدد سكانها البالغ ثمانية

عشر مليوناً ، وبثروتها الزراعية ، وتجهيزها الاقتصادي ، وصناعاتها

الآخذة بالنمو .

ولا بد من القول ان «الجامعة العربية» اصطدمت منذ اللحظة الاولى

بواقع في العالم الاسلامي يجب ان يحسب له حساب . فالعنصر العربي

واللغة العربية لم يبقيا ، في نظر بعض الشعوب ، الاساس الذي يجب ان

يرتكز عليه نمو الشعوب الاسلامية وتطورها . وقد اتجهت انظار

الجامعة العربية اول ما اتجهت الى تركيا الحديثة . ويقول بيار راندو

في مقال نشرته له « مجلة افريقيا وآسيا » في العام ١٩٤٨ : لقد ابلغت

تركيا دول الجامعة انها مستعدة لتأييد كل محاولة تهدف الى التوفيق

بين الدول العربية واوروبا في نطاق ميثاق متوسطي . ويبدو ان

انقره لا ترفض المقترحات والمشروعات التي تعرض عليها في الشرق

الادنى . ألم يصرح سفيرها في القاهرة في خريف ١٩٤٧ ان بلاده

مستعدة للانضمام الى الجامعة العربية عندما يجيز دستور هذه الجامعة

مثل هذا الانضمام ؟ ولكن اذا كانت انقره تذهب في المسيرة الى

حد الترحيب بكل ما يعرض عليها ، فلا ننسى ان بعض المشروعات

الشرقية تستدعي ، على بساطتها ، التفكير والدرس العميقين . ففي خريف ١٩٥١ اقترح رئيس مجلس الشيوخ العراقي انشاء جبهة اسيوية نحورها انقره - كاراتشي - كلكوتا . وبعد اسابيع صرح الملك عبدالله لصحيفة تركية بانه يود لو تعود تركيا الى حمل راية الاسلام مجدداً . ألا تدل هذه الاقوال على اهمية المكانة التي لتركيا في العالم الاسلامي ؟ ولكن انقرة امتنعت حتى الان عن وسم سياستها بطابع اسلامي او شرقي .

ان الجامعة العربية التي نذبت نفسها لتقوية العروبة ودعمها ، تجد نفسها مضطرة للعود الى الشعور الديني كلما ارادت تحريك الشعوب الاسلامية ، اي ان هذه الحركة السياسية في الاصل تستجد بالرابطة الاممية التي هي الاسلام كلما هبت للدفاع عن مصالح الشعوب الاسلامية في العالم . وهذا ما يحدث عندما تهتم الجامعة بمصير مسلمي افريقيا الشمالية ، وتساند في القاهرة امثال عبد الكريم وابر رقيب و سائر زعماء الحركات الاسلامية في تونس والجزائر ومراكش . وباسم الاسلام تقيم الجامعة اطيب العلاقات مع المنظمات المماثلة في الباكستان ، حتى في الحالات السياسية البحتة .

وقد تجلى نشاط الجامعة العربية اكثر ما تجلى في الشرق الادنى . وتجسد بادىء ذي بدء في الوقوف بوجه اسرائيل . ولكن الخلافات بين ابن سعود وعبدالله بن الحسين وفاروق ملك مصر قد اضعف مركز الجامعة في هذا الصراع ، وزاد مركزها ضعفاً تنكر بريطانيا لها بعد ان شجعت على قيامها ، لان الجامعة وقفت دائماً في صف اعداء الانكليز في مصر والسودان وحتى في اندونيسيا والهند . وكشف النضال ضد اسرائيل عن امكانيات البلدان العربية في

الشرق الادنى .

لقد كان قيام دولة اسرائيل في فلسطين وليد الحركة الصهيونية .
فمنذ تسعة عشر قرناً والشعب اليهودي المنتشر تحت كل كوكب
يحلم بالعودة الى صهيون . وكانت الحركة الصهيونية في الاصل حركة
دينية وصوفية ، ثم ارتدت طابعاً دينياً - سياسياً ، واستطاعت في النهاية
ان تحقق امنية اليهود بانشاء دولة اسرائيلية في صهيون القديمة .

اثرت المسألة اليهودية في الامبراطورية العثمانية في مطلع القرن
العشرين . ففي ١٧ ايار ١٩٠١ استقبل السلطان عبد الحميد الزعيم الصهيوني
هرزل الذي يعد بحق مؤسس الحركة الصهيونية والذي وجه الحركة في
المؤتمر الاسرائيلي الذي عقد في لندن سنة ١٩٠٠ توجيهاً يتفق ومصالح
بريطانيا العظمى . وفي المقابلة قال السلطان لهرزل : « كنت دائماً
ولا ازال صديقاً لليهود ، واني لاعتمد في تصريف شؤون السلطنة
ورعاية مصالحها على اخلاص رعاياي من مسلمين ويهود . اما سائر
رعاياي فثقتي باخلاصهم ضعيفة . » فاجاب هرزل : « نحن مستعدون
لمساعدة تركيا في شتى الحقول ، لاننا مقتنعون بانها قادرة على تجديد
قواها الحيوية . » وهنا طلب السلطان من زائره ان يدعو اليهود
الى المساهمة في تحسين مالية الامبراطورية العثمانية في مقابل السماح لهم
بانشاء مستعمرات ضمن المناطق التي يقع عليها اختيارهم . وقيل ان
هرزل وعد بتقديم مليوني ليرة استرلينية ، ولكنه عجز عن تأمينها .
وهكذا اخفقت اولى المحاولات السلمية لتحقيق حلم صهيون بالاتفاق
مع عبد الحميد الذي كان ضعيف الثقة بالعرب .

وفي هذه الاثناء تبنى المالئون في انكلترا الحركة الصهيونية
وقرروا دعمها . وسرعان ما نشطت الدعاوة للحركة في كل مكان ،

وايدها الاسرائيليون في مشارق الارض ومغارها . وفي الثاني من تشرين الثاني ١٩١٧ ادلى لورد بلفور وزير الخارجية في الحكومة البريطانية بتصريح اكد فيه عزم بريطانيا العظمى على انشاء وطن قومي لليهود في فلسطين . وفي الوقت نفسه كان المسؤولون الانكليز يبذلون للعرب وعوداً سخية . فادى هذا التناقض الى ما نشهده من نزاع بين العرب واليهود .

وما ان وضعت عصبة الامم فلسطين تحت الانتداب البريطاني حتى بدأ العمل في انشاء الوطن القومي اليهودي الذي استحال فيما بعد دولة صهيونية هي اسرائيل . ولم يقف العرب موقف المتفرج من تدفق اليهود على البلاد ، فاحتجوا على الهجرة اليهودية ، وعملوا على إثارة شعور العداء للسامية في العالم الاسلامي . ولما لم تجد الاحتجاجات فتىلاً ، تألفت اللجنة العربية العليا ، وما لبثت الاضطرابات ان عمت فلسطين . فقرر البريطانيون تقسيم البلاد الى منطقة عربية واخرى يهودية ، على ان يتعاون ممثلو المنطقتين في نطاق مجلس تشريعي يعاون السلطة التنفيذية . ولكن العرب واليهود رفضوا المشروع . وفي العام ١٩٣٩ نشرت بريطانيا العظمى كتاباً ابيض حددت فيه شكل الحكم في فلسطين لمدة عشر سنين . وبعد انقضاء هذه المدة تنتهي مهمة بريطانيا كدولة منتدبة ، ويتعاون في فلسطين المستقلة العرب واليهود . وعالج الكتاب الابيض مسألة الهجرة ، فحدد عدد اليهود الذين يسمح لهم بدخول البلاد سنوياً بعشرة آلاف ، على ان تمنع الهجرة الى البلاد منعاً باتاً بعد سنة ١٩٤٤ الا اذا وافق العرب . وحظر الكتاب بيع الاراضي مر اليهود في بعض المناطق العربية . وقد رفض الطرفان المتنازعان هذا الحل . وشعر الانكليز ، بعد

ان وضعت الحرب العالمية الثانية اوزارها ، بان سياستهم في فلسطين قد اخفقت ، فلا هي ارضت اليهود ولا هي ارضت العرب . وازداد هذا الشعور في العام ١٩٤٥ عندما طغت موجة الارهاب اليهودي ونشطت المنظمات كشتون والماعانا والايرون لحماية الهجرة السرية التي ساهمت في تنظيمها الجمعيات الصهيونية في اميركا واوروبا . ولما حاولت السلطات الانكليزية ، رغبةً منها في استرضاء العرب ، مكافحة هذه الهجرة مكافحة جدية انبرى لها الارهابيون واستطاعوا مضايقتها وحماية قوافل المهاجرين المقبلين من اوروبا الوسطى وبعض الاقطار الافريقية . اما اليهود الذين آثروا البقاء حيث هم ، فقد تتبعوا بلهفة الصراع القائم في فلسطين ولم يرضوا على اخوانهم فيها بالتشجيع . وبديهي ان يحتج العرب بقوة على اتساع نطاق الهجرة . وكانت اللجنة العربية قد تركت مكانها للجامعة العربية التي ناصبت الوطن القومي اليهودي العداء منذ اللحظة الاولى وراحت تحرض الدول العربية على التدخل عسكرياً . وحيال موجة العداء اليهودي - العربي المشترك قررت بريطانيا العظمى الانسحاب من فلسطين فحركة للامم المتحدة مهمة اعادة الامور الى نصابها في ما سميته « وكر الزنابير الفلسطيني » . وقد اقترحت الامم المتحدة بايعاز من الحكومة الاميركية تقسيم البلاد بجعلها ثلاث مناطق ، فرفض الطرفان المتنازعان هذا المقترح . وفي كانون الاول ١٩٤٧ قررت الجمعية العمومية باكثر من صوت واحد تقسيم فلسطين بجعلها دولتين احدهما عربية والاخرى يهودية . فقامت على الاثر دولة اسرائيل ، ولم يتم انشاء الدولة العربية ، بما ادى الى تفاقم الشعور العدائي ضد السامية في العالم الاسلامي ، وسبب نشوب نزاع مسلح بين الدولة الجديدة

ودول الجامعة العربية . وقد كانت مساهمة بعض هذه الدول في النزاع اسمية اكثر منها عملية . واستطاع الاسرائيليون الصمود في وجه الجيشين السوري واللبناني ، ونجحوا ، بعد معارك طاحنة ، في رد الجيش المصري على اعتقابه . وانهز الانكليز الفرصة فانزلوا قوات في العقبة بحجة حماية قناة السويس والاردن . ويمكن القول ان هذه الدولة العربية قد افادت من النزاع الذي انتهى في غير مصلحة دول الجامعة . ذلك ان الملك عبد الله امسك عن استغلال الانتصارات الاولى التي احرزها جيشه إما لانه لم يشأ المجازفة بالفرقة الآلية الوحيدة التي لديه ، اولانه حرص على عدم اغصاب اسرائيل واميركا التي تحميها . وقد اكتفى الملك باحتلال الضفة الغربية من نهر الاردن وحيز من مدينة القدس ، مضاعفاً بذلك رقعة مملكته وعدد رعاياه . ولئن دل مسلك الملك عبد الله على شيء فعلى عجز الجامعة العربية عن توحيد كلمة الملوك والرؤساء المتنافسين قبل مجابهة العدو المشترك . وهكذا تكشف الجامعة عن هيئة عاجزة عن ادارة الدفة ، بما كان له اسوأ وقع في العالم الاسلامي .

ارسلت الامم المتحدة الى فلسطين ، والحرب فيها سجال ، بعثة مهمتها درس الحالة عن كثب . وكان رئيس البعثة الكونت برنادوت الذي سقط صريعاً فيما بعد . اما الاعضاء فقد كانوا ضباطاً عظاماً يمثلون امماً مختلفة . وافلحت البعثة في حمل الطرفين المتنازعين على التهدان مرتين . بيد انها لم تتوصل الى نتائج ايجابية في الحقل السياسي . ويبدو ان رفض البلدان العربية مشروع التقسيم الذي اقرته الامم المتحدة قد حدا بالولايات المتحدة الى اعادة النظر في سياستها المشرقية على ضوء ما لها من مصالح اقتصادية ، وما تتوقعه من

تطورات قد تجرّ الى نشوب نزاع مسلح بينها وبين الروس . اما الاتحاد السوفياتي فقد كان في عداد مؤيدي مشروع التقسيم بصفة كونه عضواً في الامم المتحدة . وعندما سعت اسرائيل للحصول على قرض (١٩٤٩) ابدت موسكو استعداداً لمُد الدولة الناشئة بما تحتاج اليه ، ولكن المالين الاميركيين الذين كانوا متوردين بادرُوا الى تقديم القرض المطاوب . وهكذا حافظت اميركا على مركزها الممتاز في اسرائيل . وفي هذه الاثناء ، وبينما كانت مجلس الامن يدرس النزاع وبواعثه والحلول الممكنة ، كان الاردن واسرائيل يقتسمان فلسطين واضعين الامم المتحدة والجامعة العربية امام الامر الواقع . وخيّل الى المراقبين ان اتفاقاً جدياً تعقده الدولتان من شأنه ان يسهل مهمة الجمعية العمومية للامم المتحدة على ايجاد تسوية للقضية ، ولكن هذا لم يكن رأي الجامعة العربية عموماً ومصر على الاخص . فقد انتقدت الجامعة موقف الاردن ورفضت الاعتراف باتفاقه الموقت مع اسرائيل .

ولا ننسى ان حل المعضلة الفلسطينية على الصعيد السياسي هو رهن بحل مسألة القدس . ففي هذه المدينة تتجمع الاماكن التي يقدسها اليهود والنصارى والمسلمون ، ويفقدونها بارواحهم . وفي كل عام يحج الى القدس آلاف المؤمنين النصارى ليتبركوا بلمس قبر المسيح ، واليهود ليصلّوا في المكان الذي كان يقوم عليه هيكل سليمان ، والمسلمون ليصلّوا في المسجد الاقصى . ولا شك في ان اتفاق الفرقاء الثلاثة حول حماية هذه الاماكن يشكل خطوة حاسمة نحو ازالة بواعث النزاع بين الطوائف الموحدة ... ولكن التفاهم حول هذه المسألة الشائكة بعيد الاحتمال ، لان اليهود يحملون باعادة بناء هيكل

سليمان ، لان حائط المبكى وحده لا يرمز الى انبعاث صهيون .
 واعادة بناء الهيكل يترتب عليها هدم المسجد الاقصى الذي يقوم
 على انقاضه . ومن تحصيل الحاصل القول ان العرب لن يسمحوا بهذا .
 ولا ننسى ان التنافس على اشده بين الطوائف المسيحية نفسها
 حول صيانة الاماكن المقدسة . اما قرار الامم المتحدة القاضي باخضاع
 القدس لنظام دولي (تدويل القدس) فقد قاومه العرب واليهود
 مقاومة شديدة . ولا شك في ان نجاح لايك ساكيس في حل المعضلة
 يكون امراً مرغوباً فيه ، ولكن الامم المتحدة غير مؤهلة ، على
 ما يبدو ، لتسوية خلاف ذي طابع ديني - سياسي . والوسيلة الوحيدة
 لحل معضلة القدس هي ان يتصدى لمعالجتها زعماء المسلمين واليهود
 والنصارى على صعيد الايمان بوحدانية الخالق . ولكن قبل القيام
 بمحاولة من هذا النوع ينبغي للجامعة العربية ان توحد كلمة اعضائها
 في هذه المسألة . فمصر والاردن معارضان لتدويل القدس ، في حين
 تؤيد دول عربية المشروع لان الوضع الراهن في المدينة المقدسة
 وضع غير طبيعي .

واثن تـكن الجامعة العربية قد اخفقت على الصعيد السياسي فلا
 ريب في انها حافظت على نفوذها في الحقل الديني . وقد دعا امينها
 العام عبد الرحمن عزام باشا الى عقد سلسلة مؤتمرات لدرس الشؤون
 العربية العامة . وانشأت الجامعة مكاتب للدعـاوة في العواصم العربية .
 وارسلت مراقبين الى المؤتمرات الدولية واجتماعات الجمعية العمومية
 للامم المتحدة حيث تطمح الى انتزاع اعتراف بصفتها الاقليمية ،
 والى قبولها عضواً في المنظمة الدولية .

ويمكن القول ان الجامعة العربية هي امتداد العروبة حتى طوروس

شمالاً وافريقيا جنوباً وغرباً ، وانها تمثل اسلام المتوسط الشرقي ،
وتهم بالحفاظ على الرابطة الاسلامية . ولا شك في ان نشاطها في
هذه الحقول جدير بان يثير اهتمام المراقبين ، لان الجامعة مدعوة
الى تمثيل دور خطير في المأساة الروحية الكبرى التي يعيشها
المفكرون في البقعة الممتدة من الصين حتى مراکش ، اذ يجدون
انفسهم حائرين بين تقاليد الماضي ومتطلبات التطور المعاصر . ان
العروبة لا تريد التنكر للماضي . بيد ان تعدد العناصر والاديان
في آسيا الصغرى يهيب بها للعمل على اقناع الشعوب الاسلامية
بان كياناتها المنسجمة ، وحتى اندماجها في دولة واحدة ، هي الوسيلة
الوحيدة التي تكفل استمرار تطورها بشكل يجعل امانها المشروعة
ممكنة التحقيق .

اما اسرائيل فتبدو وكأنها مؤهلة لان تكون حصن الحضارة
العربية في وجه فوران آسيا حيث يتطور الاسلام نفسه تطوراً
سريعاً . وتبدي الولايات المتحدة الاميركية اهتماماً متزايداً بالدولة
اليهودية الناشئة . ويرجو العاملون في سبيل التوفيق بين العرب
واليهود - يعاونهم الوقت في مهمتهم - ان تكون المصالح المالية
والاقتصادية المشتركة في رأس العوامل المعجلة باحلال الوئام محل
الحصام . بيد ان الاحقاد يمكن ان تفجرها ، بين ساعة واخرى ، المصالح
الاجنبية المتضاربة .

لقد اخفقت الجامعة العربية في توحيد كلمة الدول الاعضاء يوم
قررت الوقوف في وجه اسرائيل . واخفقت كذلك في توحيد كلمة
دولها في العام ١٩٥١ عندما شاقها ان تتأثر خطى الهند فتعرض
وساطتها في النزاع الكوري وتلزم جانب الحيدة المطلقة في اجتماعات

الامم المتحدة . ولكن العراق ولبنان سارعا في اجتماعات لايك ساكسيس الى تأييد القرار الاميركي القاضي بشجب تدخل الصين الشيوعية في كوريا وانزالها منزلة الدولة المعتدية . اما مصر والعربية السعودية وسوريا فقد استنكفت عن التصويت .

انصرم العام ١٩٥١ دون ان يطرأ تحسن ، ولو طفيفاً ، على العلاقات بين دول الجامعة العربية واسرائيل . وفي ٢٢ تشرين الثاني من العام نفسه اوقفت لجنة التوفيق الدولية نشاطها نهائياً لان مساعيها اصطدمت بعناد الطرفين المتنازعين . وواضح ان استمرار الهجرة اليهودية الى اسرائيل وما ينجم عنها من مضاعفات مالية واقتصادية هما من بواعث تزايد التوتر واستحالة التوفيق بين اليهود وجيرانهم . الا ان هذا لم يمنع سوريا ولبنان واسرائيل من الترحيب بانشاء ميثاق مشترك للدفاع عن الشرق الاوسط .

ان اعتراف الامم المتحدة بالجامعة العربية قد عزز مركز الجامعة ولا ريب . ويبدو ان مصر تريد ان توجه الحركة العربية فكرياً وروحياً . ففي العام ١٩٥١ تبنت الجامعة مقترحاً مصرياً يقضي بالسعي في سبيل انشاء حلف بين النصارى والمسلمين يمكنه الوقوف في وجه الشيوعية ، وبذلت مساعٍ لدى الفاتيكان في هذا السبيل . وراقت الفكرة قائداً صينياً مسلماً من انصار المارشال شان كاي شك ، فاذاغ من فورموزا نداء بدعوة النصارى والمسلمين الى التكاتف .

كيف تتطور الدول العربية

كان من نتائج احتكاك الشعوب الإسلامية في الشرقين الأدنى والوسط بالحضارة الغربية نمو فكرة الوطن دون ان يترتب على هذا التطور تراخ او اهمال في حقل النشاط الاسلامي العام . وقد تميز تطور الشعوب الإسلامية في الشرق بنزعة صريحة نحو انشاء عدد من الاوطان العربية تغطي فيها الاكثرية على الاقليات العنصرية والدينية . بيد ان هذه الاوطان تفتقر في محاولتها بلوغ مستودع الدول الحديثة الى الطاقة البناءة وتكنيك العالم الخارجي . فالاسلام ، الذي تولى شؤونه في الماضي قادة عظام ، والذي لا يعدم في ايامنا قادة عظاماً ، يفتقر الى الملاكات التكنيكية ، ولا يمكنه في الوقت الحاضر ان ينشئها . يضاف الى هذا ان في جملة العوامل التي تساعد على نشوء امة ما الكيان الجغرافي . وهذا العامل غير متوفر للدول العربية . فيخط الفرات - دجلة - البحر الميت هو الحد الفاصل بين حوض المتوسط وآسيا ، وقد سلكت الغزوات التاريخية الكبرى الطريق الساحلي بين بيروت وطرابلس . ومنذ ان زالت بين سوريا الحالية وبلاد ما بين النهرين معالم الحضارات القديمة التي كانت في عهدها وادي الفرات والبقاع الممتدة بينه وبين دجلة آهلة بالسكان تحرث وتزرع على نطاق واسع - منذ ان زالت معالم الحضارات القديمة اغفل شأن الري ، وقامت البطاح نصف الصحراوية مقام

السهول الصالحة للزراعة والواحات الخضراء^١، مشكلة فاصلاً طبيعياً بين بلدان المشرق والداخل . وقبل قيام هذا الفاصل كانت القوافل تقوم من حلب ودمشق سالكة وادي الفرات ودجلة في اتجاهها نحو كردستان وبلاد فارس . وفي عهد الانتداب الفرنسي وضعت تصاميم مشاريع ري من شأنها إعادة الصلة بين سوريا والعراق، ويفصل بينهما اليوم ثغرة طبيعية^٢ .

ان تطور الدول العربية تطوراً كاملاً لن يتحقق الا اذا توافرت لها الملاكات التكنيكية، واخذت هي بعين الاعتبار الواقع الجغرافي .

منذ العام ١٩٢٠ حالت الاحداث الدولية العالمية، مضافة الى ما يقوم بين العناصر والطوائف الدينية من عوامل النفور، دون انتظام الاقطار العربية في دولة فيدرالية، فانشأت دولاً صغيرة تفصل بينها حدود هي في الغالب حدود مصطنعة . وقد ادركت هذه الدول او الدويلات ان لا غنى لها عن مساعدة الاجنبي، وانها مضطرة لطلب هذه المساعدة من الروس او من منافسيهم الانكليوسكسون، مع العلم ان فرنسا، التي لم تنهج حيال دول المشرق الا دنى سياسة مرنة، مستمرة، ليست في وضع يؤهلها لان تقدم الى

١ يقال ان هارون الرشيد كان ينتقل من بغداد الى الرقة خلال الاشجار الوارفة الظل .

٢ اسكن الفرنسيون في البطاح الممتدة بين دير الزور - الحسكة ودجلة جماعات الاشوريين الذين لجأوا الى سوريا والاكراد الذين انضموا اليهم، وعهدوا اليهم باحياء تلك المنطقة بعد انشاء نظام ري يستند الى الفرات والخابور، ولكن معارضة حكومة دمشق حالت دون المضي في المشروع .

هذه الدول رجال التكنيك الذين تحتاج اليهم . اما الانكليز الذين فقدوا مركزهم الممتاز في الشرق عقيب انتهاء الحرب العالمية الثانية فانهم يعملون جاهدين في سبيل الابقاء على ما بقي لهم من نفوذ ومصالح في منطقة هي مفرق طرق بحرية وجوية ، تراقب منه التجارة العالمية بين الشرق والغرب . ولئن يكن الخطر الاصفر في آسيا قد اهاب بالبيض الى النظام والتكاتف ، فالتنافس بينهم في الشرق الادنى قد بلغ حده الاقصى . وقد عرف العرب كيف يستغلون هذا التنافس لمصلحة دعاوتهم الموجهة ضد اسرائيل ، الدولة التي يعرقل وجودها حل قضايا الشرق الاوسط . وجدير بالذكر ان كل دولة من الدول الناشئة تقود زورق مصيرها باللباقة التي يتصف بها الشرقيون ، وسط العقبات التي تقيمها في طريقها المنافسات الاجنبية : فاسرائيل ولبنان ينشدان المساعدة الاميركية ، والاردن والعراق وسوريا - مع بعض التحفظ - تنشد مساعدة بريطانيا العظمى . ويمكن القول ، بعد ان انضمت تركيا الى ميثاق الاتلنتيك ووقعت ايران تحت سيطرة اميركا ، ان الانكلوسكسون يتمتعون بالنفوذ الاقوى في الشرق الادنى ، بما يصح معه القول ان اقطار هذا الشرق ستقف بجانب الغرب في النزاع العالمي المقبل .

ومن تحصيل الحاصل القول ان روسيا لا تقف موقف المتفرج مما يجري على مقربة منها . وقد جرى على الالسنه حديث هجوم روسي محتمل باتجاه سوريا ومصر . وليس من يجهل نفوذ موسكو في اوساط الارمن الذين لجأوا الى المشرق بعد الحرب العالمية الاولى . وليس من يجهل ان المتروبوليت الارثوذكسي زار فلسطين ليستميل الى السياسة السوفيياتية النصارى من الروس . وتخص الدعاوة الروسية

الاكراد ببعض اهتمامها ، ولا تنسى بطبيعة الحال ايران والافغان . وفي الوقت نفسه تمهد الشيوعية لتسلل روسي محتمل ، دون ان تصيب نجاحاً مذكوراً ، في مناطق لا يزال الشعور الديني فيها قوياً بين البيئات الاسلامية والمسيحية على السواء ، بدليل البيان الذي اصدره عميد الازهر في القاهرة بشجب الشيوعية ، متأثراً بذلك خطى الفاتيكان . ولكي يتسنى لدعاوة الكرملن البارعة التأثير في المسلمين يجب ان يسبق ذلك انقلاب اسلامي شامل يتناول اسلام المتوسط بنوع خاص . وانقلاب كهذا لا يمكن ان يحصل الا بغليان يبدأ في الشرق الاقصى ويمتد بعض الوقت الى آسيا الصغرى وهو محتفظ بقوته . وليس ثمة ما يدل على ان هذا الغليان وشيك الحصول .

قلنا ان الدول العربية في الشرق الادنى لم تندمج في دولة واحدة ، وان جهود الجامعة العربية في هذا السبيل قد ذهبت سدى بالرغم من وجود عدو مشترك هو دولة اسرائيل . ونذكر استيفاء للبحث انه خيل للهاشمين في العام ١٩٤٩ ان الوقت قد حان لتحقيق مشاريع الوحدة او الاتحاد إما بانشاء سوريا الكبرى او بضم سوريا الى العراق (الهلال الخصيب) ، ولكن مصر والسعودية وسوريا نفسها قاومت الفكرة ، كما قاومتها تركيا متسلحة بمعارضة اميركا لكل تعديل اقليمي في الشرق العربي . وقد رأينا ملك الاردن ووصي العراق يمان وجهيهما شطر طهران ، على امل ان يلقيا لديها التأييد الذي ضنت به عليهما الجامعة العربية وتركيا المرتبطة مع الاردن والعراق بمعاهدتي صداقة . وجرى على السنة الناطقين الرسميين في عمان وبغداد حديث عن قرب قيام « اسلامستان » او كتلة اسلامية اوسع نطاقاً من الكتلة المتوسطة التي تدعو تركيا الى انشاءها .

ولكن انقره لم تتحمس للفكرة ، وجارتها القاهرة والرياض .

وهكذا تبدو لنا مشروعات وحدة الشعوب الاسلامية سابقة لاوانها ، ولكن التلويح بها او مجرد الحديث عنها يشجع العصبية الاسلامية في باكستان والجمعية الاسلامية العالمية في كراتشي على التفكير جدياً في انتزاع المبادرة من العرب وتزعم الحركة الفكرية والروحية في العالم الاسلامي . وقد تكون مشروعات الوحدة مجرد عملية جس نبض من جانب الهاشميين ليدكروا الناسين والمتناسين بانتسابهم الى النبي وبالذور الذي مثله العترة الهاشمية في تاريخ العرب والاسلام . ومهما يكن من امر فالدول العربية في الشرق الاذن ليست في وضع تستطيع معه انشاء نظام اتحادي وطيد الدعائم ، فالمرتكز الفيدرالي الذي كان يمكن الاعتماد عليه قد زال بزوال الخلافة .

ولكن ليس معنى هذا ان تطور الشعوب العربية قد وقف عند هذا الحد . فهو مستمر سياسياً واجتماعياً واقتصادياً ، بالرغم من العقبات التي تعترضه ، ومن اليقظة القلقة التي تبديها الدول الاوروبية والاميركية . ففي ١٥ اذار ١٩٤٩ اقدم الملك عبدالله على ضم جزء من فلسطين الى مملكته غير مكثوث لقرارات الامم المتحدة ، معتمداً على تأييد الانكليز الذين سارعوا الى احتلال العقبة تخويفاً لاسرائيل . واعلن الامير ادريس السنوسي القيروان اماراً مستقلة معتمداً على تأييد الانكليز قبل ان تقول الامم المتحدة كلمتها في مصير المستعمرات الايطالية السابقة . وفي صيف ١٩٤٩ زار لندن طلباً للمساعدة والتأييد المعنوي كل من الملك عبدالله ووصي العراق ورئيس وزرائه والامير منصور السعودي . وعرج بعض هؤلاء على مدريد

وهو في طريقه الى بلاده ، عملاً بالحكمة القائلة ان صداقتين افضل من صداقة واحدة ، مع العلم ان الدكتاتور الاسباني يتتبع باهتمام تطور الاسلام المتوسطي .

وقد تقدم معنا في فصل سابق ان ابن سعود حاول التوسع على حساب اليمن فاصطدم بمقاومة الامام يحيى .

واستيفاء منا للبحث نأتي على ذكر سلطنات حضرموت وعمان ومستقط التي تمتد نفوذها الديني حتى زنجبار ، ولكنها لا تشعر بالتيارات التي تتجاذب باقي الاقطار العربية .

ان الاسلام في الشرق الادنى يتطور اذاً ، فهل يستمر في تطوره متوكلًا على سواعد الانكلوسكسون المسيطرين على اسواق بلدانه ؟ ليس ثمة ما يجيز القول ان قوة الدفع (الديناميسم) العربية والاسلامية تستطيع الحفاظ على طابعها الخاص ، مع العلم ان السيطرة الاقتصادية تطفئ على النمو السياسي ، ففي عصر يقوم فيه للبترول عرش لا يمكن الاماني المحلية ان تأخذ مداها وان تفصح عن ذاتها بحرية^١ .

ان انايب البترول العربي تمر في اراضي الدول العربية لتصل

١ اذا كان العرب جادين في سعيهم الى انشاء امبراطورية عربية ، فعلى حكوماتهم ان تتحرر من الانانية المحلية ، وان تتجنب كل عمل من شأنه اقامة العراقل في طريق الوحدة . ويجب ان يكون شعار العرب حكماً ومحكومين : العروبة فوق الجميع . ان مطامع الملوك والرؤساء ، وتضارب المصالح الاقتصادية ، وضغط الدول الاجنبية التي تحاول كل منها الاستئثار باسواق البلاد العربية ، هذه العوامل مجتمعة حالت حتى الان دون قيام الوطن العربي . - (مجلة الرابطة العربية) .

الى المصـب ، فعلى هذه الدول ان تأخذ بعين الاعتبار مصالح شركات النفط القوية . ولا شك في ان الشركات ستعرف كيف تحمي مصالحها سواء ساءت العلاقات بين الافطار الاسلامية او تحسنت .

ولا بد من القول ان التنافس في الحقلين السياسي والاقتصادي بين المعسكرين الكبيرين من شأنه ان يعوق نمو الدول الاسلامية . ولكن من يدري ، فقد ينتفض الاسلام احدى انتفاضاته الرائعة ، وهو الذي اعتاد استخدام الاجنبي ، وقبلها مكن الاجانب من اخضاعه لسيطرتهم .

فما عساه يكون مستقبل الشرق الادنى ؟ لقد كان الملك عبد الله شخصية قوية ، ولكن المسلمين كانوا يأخذون عليه ذهابه بعيداً في مسامرة انكلترا ، ولم يكن موقف مصر والسعودية منه ودياً ، اما تركيا فقد لزمت منه دائماً جانب التحفظ . وبعد وفاة الملك ارتأب المراقبون في قدرة الاردن على صون حدوده الحالية ، لان حدود اسرائيل الجغرافية هي على نهر الاردن والبحر الميت . ان احتمال زوال الدولة اليهودية ليس موضع بحث . وقد يأتي يوم تندفع فيه هذه الدولة العتيقة نحو حدودها الطبيعية . اما الان فالعلاقات بين الاردن واسرائيل تكاد تكون عادية بفضل الاتفاق المعقود بينهما ، والذي لا يرجح منه الحؤول دون تجدد النزاع ما دامت مشكلة القدس قائمة . ولعل الحل الوحيد الممكن هو قيام اتحاد فيدرالي بين الدولتين ، على ان تكون القدس عاصمتهما المشتركة . اما الاماكن المقدسة فيصار الى تدويلها عند الاقتضاء . وبديهي ان ترحيب الدولتين بهذا الحل يفترض تفهما لمصالحهما وعزمهما الصادق على ازالة بواغث النزاع .

وهنا لا بد من التساؤل ما اذا كانت اسرائيل تستطيع التفاهم مع لبنان حيث يشكل المسيحيون قوة لا يستهان بها ، ومع سوريا حيث يمكن ان يرحب العلويون والاسماعيليون والدروز والاكرد بنظام فيدرالي لا يغلب عليه الطابع العربي ؟ ذلك ان النظام الثيوقراطي في البلاد الاسلامية ، ولا سيما العربية ، يتمسك بالملكية كشكل من اشكال الحكم ، ولا يسع الملوك ، في سعيهم الى وسم الدولة بطابع علماني ، ان يغفلوا شأن مبادئ الدين الاساسية ، ولا شأن الاعتقاد الذي ما يزال سائداً : « لا خلاص خارج الاسلام » . وحتى في الجمهوريات العلمانية ، حيث تسيطر اكنوية اسلامية كتركيا مثلاً ، يتأثر نشاط الدولة الى حد بعيد بالانتفاضات الدينية ، ولا ننسى ان اسرائيل نفسها قائمة على اساس ديني . وهكذا نرى ان الشرق لم يتخل بعد عن مفهوم « الامة الدينية » ، وان الدولة العلمانية المتساحة مع كل الاديان لا تزال في الشرقين الادنى والاوسط تنقل خطى متردة حائرة .

ما تستطيعه فرنسا في اقطار الشرق الاسلامية

ساهمت فرنسا ولا تزال تساهم مساهمة فعالة في نشر الحضارة . وليس من ينكر الدور الذي قامت به في المشرق . فمُنذ عهد القديس لويس وفرنسوى الاول ما فتى ابناءؤها ينشرون نتاج الفكر الفرنسي ، يأخذون بيد تلك البلاد في معارج التقدم . وقد اكسب هذا الدور اهمية خاصة ظهور فرنسا في تلك البلاد الاسلامية بصفة كونها حامية للنصارى .

ان حماية الاقليات المسيحية من كاثوليك وموارنة وارمن لم تبق ذات موضوع ، لان الدول العربية جعلت شعارها التسامح حيال « اهل الكتاب » ، واشركت الاقليات في ادارة شؤون الدولة ، وتعاون المسلمون والنصارى في نطاق العروبة . وقد كانت على فرنسا ، التي لم تسلم من المنازعات الدينية والتي علمت الناس معنى الحرية ، ان تساهم في تدعيم هذا الكونكورداتو الروحي في المشرق . ورأيناها بين ١٩١٥ (?) و ١٩٤٥ تبذل في سوريا ولبنان مجهوداً طيباً في هذا السبيل ، وتعمل على تطوير البلدين سياسياً واقتصادياً . بيد ان سلسلة من الاخطاء ، مضافاً اليها التدخل الاجنبي ، عجلت بتقلص نفوذ فرنسا وباحراز البلدين استقلالاً تشوبه حاجتهما الملحة الى المساعدة المالية والتكنيكية التي لا يمكنها الحصول عليها خارج اوروبا او اميركا .

ان سياسة الفرنسيين في المشرق لم تسلم من المآخذ ، من ذلك انهم حاولوا توحيد ما لا يمكن توحيد ، وظهروا بمظهر حراس الحضارة لا ينازعهم في هذه الصفة منازع ، وخيل اليهم ان مجرد وجودهم في بلاد ما يجعل منهم اصدقاء الشعب ويحببهم اليه ، سواء دخلوا البلاد فاتحين او اصدقاء . وقد فاتهم ان العالم العربي ينشيء نفسه ، ويجمع اشتاته ، ويحاول اثناء شخصيته ، بالرغم من العقبات التي تعترض سبيله ، وقد هب باديء ذي بدء لمقاومة الانتدابات التي فرضت عليه ، ولم يغتفر المسلمون لفرنسا سياسة العطف التي اقتصت بها الاقليات .

اما وقد زالت الانتدابات واستقلت الدول العربية في الشرق الادنى بادارة شؤونها ، فليس ما يستوقف النظر من شؤون العالم العربي - في الظاهر على الاقل - سوى تزايد المصالح البتولية واستمرار التنافس بين الملوك . ولكن اذا انعمنا النظر في انتفاضات الشعوب العربية ، نلاحظ انها تحاول النهوض معتمدة على الثقافة التكنيكية الحديثة ، وان « الامة الاسلامية » القائمة على مرتكز ديني بحت تركت مكانها لفكرة الوطن ، فقامت في الشرق الادنى بضعة اوطان ، وبدأت تسود فكرة فصل الدين عن الدولة ، وطفعت العروبة في المشرق على الوحدة الاسلامية والوحدة العربية . هذا في دنيا العرب . اما في البلدان والاسلامية التي تقطنها شعوب غير عربية فقد تخلت لغة القرآن عن مكانها للغات المحلية . ففي تركيا نقل الكتاب المنزل الى التركية ، وفي ايران الى الايرانية ، وفي البلدان الاسلامية الخاضعة للسيطرة السوفياتية نقل الى اللغة التركمانية . وهذا التطور الذي عرفت مثله النصرانية يوم كفت

الكنائس الإصلاحية او المجددة عن استعمال اللاتينية في الطقوس وتلاوة الانجيل . ولكنه في الاسلام اعمق اثرآ واشد خطورة منه في النصرانية ، لان القرآن انزل بالعربية ، والتعمق بالدين يتطلب تضلعا من هذه اللغة .

ولم يقف الامر عند هذا الحد ، ففي آسيا بدأت الشعوب تتطور على الصعيد القومي بمعزل عن الاعتبار الدينية . فقد اغتالت يد ائيمة المهاتما غاندي لانه اراد توحيد الهند والحوول دون انفصال الباكستان عن هندستان ، وها هي جمهورية اندونيسيا تسلك الطريق المؤدية الى الوحدة بدمج الجمهوريات الصغيرة ، اسلامية كانت او غير اسلامية . ومهما يكن من امر فالثابت ان الاسلام الاسيوي ولى العروبة ظهره . وقد ادركت آسيا الصغرى هذه الحقيقة ، وندبت الجامعة العربية نفسها لوقف الموجة الاسيوية قبل ان تطفئ على العروبة . اما افريقيا الشمالية التي بقيت عربية الطابع فانها تتبع باهتمام زائد جهود الشعوب العربية في الشرق الادنى .

في هذه الفترة العصبية التي يجتازها العالم يجب ان يحسب حساب كبير لنشوء اسلام اسويي مقابل الاسلام المتوسطي . ولا يسع فرنسا بطبيعة الحال ان تتجاهل ما يجري في آسيا الصغرى لان ما يحدث في هذه المنطقة يكون له صده في افريقيا الشمالية . نعم ، لا يمكن فرنسا ان تتدخل مباشرة في الشرقين الاوسط والادنى ، ولكنها تستطيع ان تمثل دورها كدولة مجردة عن كل غاية . ولا بد من الاشارة الى ان العرب قد ادركوا ان بريطانيا العظمى والولايات المتحدة الاميركية توليانهم عناية خاصة لان

مصالحها تقضي بذلك . وان العديد من المسلمين المثقفين في بلدان المشرق يعترفون بآثر فرنسا في بلدانهم ويوجبون باستمرار رسالتها الفكرية .

ولا ننسى ان عهد استمالة البلدان بحشو جيوب بعض الزعماء بالاصفر الرنان قد ولّى . وان لا بد من استمالة السواد الذي يتطور هو الآخر ، ويفكر ، وينتقد ، ويعرف كيف يكتشف اصدقاءه الحقيقيين وسط هذا الحُضم من الدعاوات المغرضة والاخبار المغلوطة والتوجيهات المضلّة . وقد رأينا هذا السواد يرفض التعاون مع قادته في بعض الحالات ، بما حل هؤلاء على اعتماد البطش وسيلة لاختضاع السواد المتمرد ، وكانت مصر مسرحاً لاغتيالات سياسية الغرض منها اكراه الحكومة على تعديل موقفها من الدولة الاسرائيلية . ويبدو ان السواد في العالم العربي لا يشعر بميل شديد الى الانكلوسكسون . اما فرنسا التي احتفظت في الشرق بسمة طيبة واستردت بسرعة النفوذ الذي افقدها اياه الاحتلال العسكري والاداري ، فليس ثمة ما يمنع استئناسها سياستها التاريخية في المتوسط وجعلها منسجمة والاحوال الراهنة . ولا ريب في ان الجامعة العربية ، بعد صيرورتها منظمة اقليمية ، وبعد ان يتم لها التحرر من السيطرة الانكليزية ، يمكنها ان تتطور لتصبح الهيئة الصالحة لتمثيل الاسلام السياسي في حوض المتوسط الشرقي ، والتوفيق بين الاسلام كدين والحضارة الغربية . واذا استثنينا تركيا ومصر والعربية السعودية التي تؤلف كيانات خاصة ، فقيام « ولايات متحدة » في المشرق قد يحل معضلة الشرق الادنى . ولبلوغ هذه النتيجة لا بد من تعاون المسلمين والنصارى واليهود على الصعيد القومي البحت ،

ويمكن فرنسا بصفة كونها دولة اسلامية ان تساهم في تحقيق هذه الخطوة الحيوية للسلم العالمي.

ان نمو الثقافة الفرنسية في المشرق لم يتأثر بزوال الانتداب . ويمكن القول ان الاقبال على المعاهد الفرنسية قد ازداد بعد تحرر هذه المؤسسات من سيطرة السلطات العسكرية والمدنية . فعلى فرنسا ، والحالة هذه ، ان تعزز نفوذها المعنوي في هذه المنطقة بسياسة نيرة وطويلة النفس . ان العالم الاسلامي يتجه الآن اتجاهاً وطنياً وقوياً . وهو لا بد محقق امانه بفرنسا وبدونها . ولن تبقى افريقيا الشمالية بمعزل عن الحوادث . لقد ترك الفرنسيون في المشرق ، بالرغم من مساوئ الانتداب ، ما يذكرون معه بالخير ، فمن مصالحهم ان يعترفوا بقيام الدول الناشئة وان يسهلوا نموها ويساعدوها مجردين عن كل غاية . وبفضل هذا النهج الحكيم يمكن فرنسا اثبات وجودها في المتوسط الشرقي دون ان تغفل شأن مسألة الاقليات العنصرية والدينية التي قد تستغلها يوماً اوروبا - آسيا ، وتتخذ منها حجة ضد الحضارة المتوسطية . ذلك بان الكرملن ، مع تشديده على فصل الدين عن الدولة ، لن يتورع عن استخدام الاديان في تحقيق اغراضه السياسية . بيد انه لا يفوتنا ان اتجاه الشرق الادنى نحو علمانية الدولة ما يزال اضعف من ان ينال من التأثير القوي الذي للدين ، وان الديانات الموحدة الثلاث : الاسلام والنصرانية واليهودية ، مهما تقاوم بينها النزاع ، تعود فتتعاون على الصعيد السياسي اذا ما وقعت الواقعة بين القيم الروحية والنزعة المادية . وفي حال جنوح الاسلام الاسيوي الى التقرب من المعسكر المادي ، فلا يختلف اثنان في تأييد الاسلام

الأوروبي والعربي لمعسكر القيم الروحية .

ترى ، أيهم المسلمون ان التمسك بالعروبة المطلقة في آسيا الصغرى الواقعة بين أوروبا - آسيا وأوروبا - أفريقيا من شأنه ان يجمد مدة طويلة مقدرات الشعوب الاسلامية ؟ ان تعدد العناصر والاديان ، الذي كان في الماضي احد عوامل الشقاق والمنازعات الدموية ، يجب ان يكون اليوم من العوامل المؤدية الى زوال كل استئثار عنصري او ديني . وقد تحقق هذا في تركيا الحديثة ، ويبدو انه يتحقق في سوريا . ولا بد من لفت انتباه المسلمين الى ان العروبة ، هذه الانتفاضة العنصرية المنبثقة من الاسلام ، لا تجيز للعنصر العربي ان يعتبر نفسه ضرورياً لنمو الاسلام بوجه عام . لقد تقدم معنا ان تركيا والبلدان الاسلامية في آسيا الخاضعة للسيطرة السوفياتية نقلت القرآن الى اللغات المحلية ، وان الحركات القومية في آسيا تنسم بطابع علماني - ديني بصرف النظر عن المعتقدات الدينية والفوارق العنصرية . ولا شك في ان نمو هذه النزعة يحتاج الى مساعدة الاجنبي . وقد رأينا الدول تحدد موقفها في هذا الحقل . فبريطانيا العظمى تنشئ مصلحتها اولاً ، ولكن سياستها العربية التي وضع اسسها لورد كورزون في العام ١٩٠٩ تتعارض وسياسة بلفور الصهيونية . وتتابع اميركا سياستها الرامية الى استعمار العالم اقتصادياً . اما روسيا السوفياتية فكونها دولة ملحدة لا يمنعها من تبديل موقفها اذا اقتضت مصالحها هذا التبديل . وبالا انتظار تحاول الشيوعية القضاء على النفوذ الاسلامي في كل مكان . بقيت فرنسا الدولة العلمانية التي تحترم الاديان . ففي المشرق دافعت عن الاقليات ، ولكنها لم تعترض سبيل الوحدة السورية . وفي افريقيا الشمالية حققت وحدة مراکش على حساب البربر . ولم

تتنكر في تونس للاماني العربية . وفي افريقيا السوداء اخذ عليها
 تساهلها حيال نشاط بعثات التبشير الاسلامية .
 فاذا اقتنع مسلمو آسيا الصغرى بإمكان انصهار العناصر في الدولة
 على اساس احترام الاديان وحقوق الاقليات العنصرية والدينية ،
 وادركوا ان مثل هذا التطور يساعد على قيام نظام سياسي منسجم
 ووطيد ، مع بقاء الاسلام محافظاً على طابعه وقواعده الاساسية ،
 واذا سلموا اخيراً بضرورة الاستعانة بالاجنبي ، فان ما تستطيع فرنسا
 تقديمه هو ولا شك ذو شأن وقيمة .

انتهى الجزء الاول ويليه الجزء الثاني ، وعنوانه :

المسلمون في آسيا

فهرست

٥	.	.	.	.	.	.	.	كلمة المعرب .
٨	.	.	.	.	.	.	.	تقديم .
١١	.	.	.	.	.	.	.	مقدمة .
١٤	.	.	.	.	.	.	.	مدخل .
٢١	.	.	.	.	.	.	.	تطور نفسية الاسلام في الماضي .
٢٩	.	.	.	.	.	.	.	نفسية المسلم المعاصر .
٤٤	.	.	.	.	.	.	.	الاسلام على مفترق نفسي في تاريخه .
٥٨	.	.	.	.	.	.	.	نشوء الدول الاسلامية المعاصرة .
								من فكرة الامة الاسلامية الى فكرة الوطن .
٧٤	.	.	.	.	.	.	.	الاسلام في المسألة الشرقية الجديدة .
٨٢	.	.	.	.	.	.	.	تركيا الحديثة .
٩٥	.	.	.	.	.	.	.	في الشرق الادنى : سوريا ولبنان .
								الشرق الادنى .
								سوريا ولبنان بين ١٩١٩ - ١٩٣٩ .
								سوريا ولبنان ١٩٣٩ - ١٩٥٢ .
١٠٩	.	.	.	.	.	.	.	دول عربية اخرى .
								شرق الاردن والاردن .
								العربية السعودية .
								العراق والمسألة الكردية .

- الجامعة العربية ومسألة اسرائيل ١٢٤
 كيف تتطور الدول العربية ١٤٠
 ما تستطيعه فرنسا في اقطار الشرق الاسلامية . ١٤٨



سلسلة رواية وادب وتاريخ ومغامرات

قروش لبنانية

١٠٠	١ - ايلوئيز وابيلار	لويس الحاج
١٠٠	٢ - باغانيني ساحر النساء	رئيف خوري
١٠٠	٣ - بودلير في حياته الغرامية	الياس ابوشبكه
١٠٠	٤ - ميسالين الامبراطورة الوثنية ،	لويس الحاج
٢٠٠	٥ - ليدي هاملتن سفيرة الحب	باسيل دقاق
١٥٠	٦ - ديك الجن الحب المفترس	رئيف خوري
١٥٠	٧ - كاترين الروسية في احضان الحب ،	باسيل دقاق
٢٠٠	٨ - نابوليون وزوجته البولونية	باسيل دقاق
١٥٠	٩ - اللورد بيرون عاشق نفسه	انطون غطاس كرم
١٧٥	١٠ - بولين بورغيز الشهوة الجامحة	باسيل دقاق
١٥٠	١١ - المرأة في حياة ادغار بو	عبد اللطيف شراره
٣٥٠	١٢ - فاغنر والمرأة	جورج جرداق
١٠٠	١٣ - المركيزة دي بومبادور	خليل يونس
٢٢٥	١٤ - مضاجع نابوليون الثالث	باسيل دقاق



Princeton University Library



32101 057334664